أثر الحضارة الإسلامية

في الغرب

تأليف

د/ إسماعيل أحمد ياغي

الرياض ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م

مقدمة

جاءت أمة الإسلام فكانت خير أمة أخرجت للناس، تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فكانت أول أمة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم، فنشرت عقيدة ، وأقامت حضارة ، أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العلام في ظلام وبؤس وحروب طاحنة.

ولاريب أن أمة الإسلام آمنت بالعلم ابتداء من الخليفة إلى أصغر مواطن، فأصبح المسلمون جميعاً طلاب علم. فقد كان العلم عندهم أعظم قدراً وأرفع شأناً من كل مال وجاه. وكان العلماء المسلمون أصحاب المنزلة العظيمة عند الخلفاء والولاة.

في هذه البيئة الصالحة انطلق العلماء في البحث العلمي، فنشأت بذلك نهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة، فتقدمت العلوم وارتقت،

وبرز علماء أفذاذ من المسلمين في شتى العلوم، كابن سينا وفي الطب والبروني في الفلك والحسن بن الهيثم في علم الفيزياء وجابر بن حيان في الكيمياء وغيرهم من العلماء الذين سطعوا في سماء الحضارة الإسلامية وكان لهم أثر كبير في الغرب الأوربي.

وهكذا استطاع المسلمون الأوائل بقوة إيمانهم وعقيدتهم أن ينشروا

الدين الإسلامي، فكونوا دولة إسلامية مترامية تستظل بظل الإسلام، وتتمتع بعدل الإسلام ومساواته بين الأجناس، ومن هنا تمكن علماء المسلمين أن يرفعوا لوآء العلم فأقاموا حضارة حضارة إسلامية شامخة على أساس من العلم والمعرفة والتقوى والعدل في وقت كانت فيه أوروبا تعيش في ظلام دامس وصراع مستمر وجهل مطبق فقد كان العرب المسلمون أهل أصالة وعلم قاد الإنسانية نحو المجد والقوة بفضل العلماء العرب الذين حملوا المشعل وأضاء وادياجير الظلام والجهل. كما كانت اللغة العربي هي اللغة العلمية، وكانت كذلك اللغة الدولية في هذا الميدان العلمي. ولذلك نقل الغرب الأوروبي العلوم عن اللغة العربية بعد ترجمتها إلى اللغة اللاتينية.

ومهما يكن من أمر، فإن الحضارة الإسلامية قد قامت على أساس التسامح الديني العلماء والمفكرين من كل الأجناس والمِلَلْ، من غير تمييز بين دين ودين ومذهب ومذهب، وهذا التسامح الديني هو الذي ساعد على جمع مظاهر الحضارات القديمة لتكون بداية للجانب المادي من الحضارة الإسلامية التي انتشرت في بيئات جغرافية متنوعة تشمل أجناساً مختلفة مما أعطاها موارد ومصادر للرقي المادي والحضاري.

والله ولي التوفيق

الرياض صفر ١٤١٨ هـ / يونيو ١٩٩٧ د/ إسماعيل أحمد ياغي

العرب قبل الإسلام

عاش العرب منقطعين عن العلام قبل الإسلام ، يعبدون الأصنام، ويتسلط القوي على الضعيف ليس لهم دين صحيح، ولا وحدة عامة توحدهم وتجمع شملهم، فكانوا يعيشون في ظل العصبية القبلية، وكانوا متفرقين والحروب بينهم مستمرة. وكانوا يعيشون في فساد وفوضى ووحشية وهمجية وحرب وقتال ونزاع دائم.

وكان من تقاليدهم البغيضة وأد البنات ودفنهن أحياء، وكانوا لا يعتقدون في الحياة بعد الموت، ولا يشعرون بمسؤولية أعمالهم. كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة، أما علومهم فقد انحصرت في الشعر والخطابة ومعرفة النجوم والكهانة والأنواء وسقوط الأمطار واقتفاء الأثر.

أمة الإسلام:

لقد أعز الله العرب الإسلام، فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور، وأحيا به أمة هامدة وأصبحوا خلقاً جديداً، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى والعلم والعمل الصالح، ووجدهم في تقدم ورقي وحضارة ، ودانت الأمة الإسلام الممالك والأمصار في سهولة ويسر، وكيف رضيت بهم الشعوب على اختلاف أجناسها وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم[1].

(١) د/ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية القاهرة ١٩٨٩م ص ٧ ـ ٨ .

ومهما يكن من أمر فقد كانت أمة الإسلام قائمة على المبادئ الأخلاقية السامية، كما أن أمة الإسلام دستورية، فالحكم في الإسلام مقيد بالقرآن والسنة، وقد حقق القرآن كل أغراض الحكومة الدستورية فجعل الحكم شورى وأزال الفوارق في الحقوق والواجبات، وساوى بين البشر جميعاً. فأُمة الإسلام خير أُمة أخرجت للناس، تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وتأمُر بالمعروف وتنهى عن المُنكر، فكانت أول أُمة جمعت بين قوة الإيمان وحب العلم، فنشرت وعقيدة وأقامت حضارة، أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العالم، فنشرت عقيدة وأقامت حضارة، أضاءت بها الدنيا في وقت كان فيه العلام في ظلام وبؤس وحروب طاحنة.

جاءت أمة الإسلام تؤمن بحرية الإنسان فعاش الإنسان حراً كريماً، وتؤمن بالإخاء والتراحم والتعاطف، فعاش الإنسان مع غيره كالجسد الواحد، ودعت أمة الإسلام إلى المساواة في الحقوق والواجبات، الأمر الذي أشاع الأخاء والمودة والرحمة بين الناس، فعاش المواطن في هدوء وطمأنينة ولهذا كان المجتمع الإسلامي راضياً مطمئنا على يومه وعده[1]

وآمنت أمة الإسلام بالعلم فأصبح المسلمون جميعاً طلاب علم، وانطلق العلماء في البحث العلمي، فنشأت بذلك نهضة علمية في كل فروع العلم والمعرفة، فتقدمت العلوم وارتقت، وتقدم الطب والزراعة والصناعة.

(١) نفس المرجع، ص ٩ - ١٠

وهكذا فإن أمة الإسلام كانت خير أمة أخرجت للناس، تؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهي أمة وسطاً تعمل على تحقيق الحرية والمساواة والعدل(١).

الروابط التي تجمع أفراد الأمة الإسلامية.

جعل الإسلام من المسلمين أمة متميزة ، وجعلها خير أمة أخرجت للناس وهي تجمع شمل المسلمين وتفتح صدرها لمن لم يكن مسلماً. ولذا قامت الرابطة بين أبناء الأمة الإسلامية على أساس العقيدة الإسلامية التي تقوم على توحيد الإله، والتوجه نحو القبلة في الصلاة، ووحدة الشرائع والأحكام التي تؤخذ من القرآن، ووحدة الحج الذي يغذي روح الوحدة الإسلامية ووحدة اللغة والتاريخ المشترك والقيم والعادات والتقاليد المستمرة من الإسالام.

ولا ريب أن الإسلام قد غير مجرى التاريخ وقطع بين الحضارات القديمة كالفرعونية واليونانية والرومانية والفارسية والهندية، وربط بين الحنفية ورسالة محمد فأعاد سلسلة النبوات وأوجد حضارة متصلة بالسماء من آدم إلى محمد.

غير أن الإسلام قد واجه تحديات منذ ظهوره بسبب ازدهاره، ولكنه تغلب على كل التحديات وأثبت قدرته على البقاء والاستمرار والاتساع،

(١) د. عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ١٠

وظل محتفظاً بذاتيته عن غيره من النحل والأديان[١].

الحضارة الإسلامية حضارة عالمية:

قامت الحضارة على أساس إيمانها بالإسلام ونفورها من التعصب الديني واحترامها لكل الأديان الأخرى، وكان التسامح الديني وعدم التعصب هو مظهر الدين الإسلامي.

وشجع الخلفاء روح الإبداع والابتكار والبحث العلمي والربط بين تعاليم الدين والعلم. وقد ظهر الإسلام بين بيئات جغرافية متنوعة مما أعطاه رقياً مادياً وحضارياً، كما أن وجود الإسلام بين بيئات بشرية متنوعة أعطاه الحيوية والقدرة والبقاء وجعلها تخرج من حدود ضيقة إلى حدود واسعة وهذا ما جعلها حضارة عالمية أخذت عنها الحضارة الأوربية الحديثة[٢].

وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية للأسباب الآتية:

١ ـ الإسلام يدعو إلي العلم وبحث عليه.

٢ ـ النبي محمد ﷺ يدعو إلى العلم.

٣ ـ اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء.

---

(١) د/ جميل المصري، حاضر العالم الإسلامي، عمان ١٩٨٩، ص ١٣.

(٢) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق ص ١١.

أولاً الإسلام يدعو إلى العلم: جاء الإسلام يحث على طلب العلم ويدعو إليه، وكانت أولى آيات القرآن الكريم تحث عليه وهي: ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم** ﴾، ثم تتابع نزول القرآن ووردت به آيات كثيرة تدعو إلى العلم وتكرم أهله وترفعهم إلى أعلى الدرجات: ﴿ **قل هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾، ﴿ **ويرفع الله الذين أوتوا العلم منكم والذين آمنوا منكم درجات** ﴾ و ﴿ **نرفع درجات من نشأ وفوق كل ذي علم عليم** ﴾ و ﴿ **وإنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾، ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ ﴿ **وقل ربي زدني علما** ﴾.

أخذ النبي يعلم المسلمين فدية لإطلاق سراحهم. وقد ركز القرآن الكريم في كثير من آياته على العلم ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ أي أن الله يدعوا إلى البحث في أنفسنا كيف خلقنا وكيف يميتنا وما في جسمنا من أجهزة دقيقة ودراسة العلوم التي تتصل بالإنسان لعلم الطب وعلى النفس. كما علمنا القرآن ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ احترام العلماء وتبجيلهم وتكريمهم حتى يخلصوا في عملهم ويتقدموا في انتاجهم[1].

(١) د/ عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، القاهرة ١٩٩٥، ص ٤٩ - ٦٤

وقال تعالى ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ وهذه الآية تحض على إيجاد علماء متخصصين في كل علم، وإن نرجع في أمورنا لأهل الخبرة والاختصاص واحترام الإسالم العقل الإنساني ودعا إلى النظر في الكون ليدرك عظمة الخالق وقد ورد في آيات كثيرة في القرآن الكريم عن الكون والفلك والرياح والنجوم والحواس كالسمع والبصر والفؤاد. وهذا يؤكد حقيقة علمية لم يصل إليها العلم إلا أخيراً بينما جاء بها القرآن منذ ١٤ قرناً.

وقد أثبت العلم الحديث بالتجارب والأبحاث أن الجنين يولد وتبدأ حواسه بالعمل بعد ذلك، وأول الحواس الذي يستعملها الطفل هي حاسة السمع وتعليها حاسة البصر وأخيراً الإدراك والقدرة على الفهم. وهناك آيات كثيرة تحث على تدبر آيات الخالق والاستفادة منها والبحث عن هذه الآيات من الناحية العلمية الحديثة ليستزيد منها الأطباء والعلماء وليؤكدوا ما جاء فيه من أسرار الكون وعظمة الخالق. وقد أثبت العلم الحديث أهمية البلح في تسهيل الولادة وذلك بعد ١٤ قرناً من نزلو القرآن الكريم كما جاء في سورة مريم ﴿ **وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا** ﴾[١]

(١) نفس المرجع.

ثانياً: نبي الإسلام والعلم:

حث النبي على العلم وقال في ذلك؛ أحاديث كثيرة «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» اطلبوا العلم ولو في الصين» طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلم» «المعدة بيت الداء والحمية رأس كل دواء واجمع العلماء ان الاعتدال في الطعام هو خير وسيلة للوقاية من الأمراض وقال الرسول » ما ملأ ابن آدم من وعاء شراً من بطنه» وقال نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع»[1] وحرم الرسول الخمور تحريماً مطلقاً.

ثالثاً: اهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء:

اهتم الخلفاء بعلوم الدين ثم قاموا بترجمة علوم الأمم السابقة إلى العربية، وحظى المتعلمون برضا الخلفاء الذين كانوا يغدقون عليهم الهبات والعطايا وكان الخلفاء يعلمون خاصتهم وأبنائهم. وحظى المترجمون برضا الخلفاء ومنحوهم الهبات والعطايا، وقد عهد الخلفاء إلى العلماء الأفاضل بتعليم أولادهم. وكان المأمون من أعظم خلفاء بني العباس اهتماماً بالعلم والأدب فشجع العلماء ووفر المكتبات وأنشأ المدارس الإسلامية، وكان يحضر المناقشات العلمية.

وهكذا نجد أن القرآن والسنة النبوية والخلفاء والأمراء قد اهتموا بلعلم وشجعوا على طلبه، الأمر الذي ساعد على ازدهار الحضارة الإسلامية

(١) د/عز الدين فراج، المرجع السابق ٢٩ ـ ٣٧ .

وظهر علماء أفذاذ في مختلف العلوم مثل ابن سينا في الطب وابن الهيثم في الطبيعة (الفيزياء) وجابر بن حيان في الكيمياء. لذلك ازدهرت الحضارة الإسلامية بعلومها المختلفة وصناعاتها المتنوعة والزراعة الناجحة في وقت كان فيه أوروبا تعيش في ظلام دامس، فأسرعت أوروبا لتأخذ من الحضارة الإسلامية(١).

الحضارة الإسلامية:

ماهي الحضارة ؟ الحضارة هي النشاط الفكري الإنساني في إطار القيم الروحية والأخلاقية المستمدة من العقيدة الإسلامية. فالحضارة تجسيد عملي للنشاط الفكري عند الإنسان عبر اجتيازه معارج الحياة، وتاريخ الحضارة سجل لتطور علطاء الفكر ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة، من اقتصادية وسياسية واجتماعية وإدارية وحربية وعمرانية وأدبية، كما تتناول الحضارة إلى جانب ذلك وسائل انتاج الإنسان ومستوى معيشته، وفنونه الجميلة، ومعتقداته الدينية، وكيفية تحصيله علومه، وطرق صياغة أدابه، ووسائل كفاحه المستمر مع نفسه أولاً، ومع الطبيعة ثانياً من أجل البقاء.

وهكذا فإن مقياس الحضارة الإنسانية هو إمكانية صراع الإنسان مع نفسه ومع الطبيعة ، وطرق أدائه لحاجاته المختلفة، واختصاره الزمن لبلوغ

(١) نفس المرجع ، ص ٣٧ ـ ٣٩ .

حياة أبقى وأنقى وأرقى[١].

الفرق بين الدراسة الحضارية والدراسة التاريخية.

تهتم الدراسة الحضارية بمجموع القيم الاجتماعية والأنماط الثابتة المرتبطة التي تتحكم في نشاط المجتمع، وكون له شخصيته الحضارية بكل ما يتصل بهذه الشخصية من مفهومات الحياة والموت، والطبيعة والتاريخية، والعلاقات الاجتماعية، ومصير الإنسان.

ولذا كانت الدراسة الحضارية بمفهومها العلمي تميل إلى النظرة الكلية التي من شأنها أن تكشف عن ظواهر الحياة من كافة جوانبها لتبعث التاريخ الاجتماعي في صورة شاملة.

وعلى هذا فإن هناك صلة وثيقة ما بين دراسة التاريخ ودراسة الحضارة من حيث الاهتمام بالحياة الإنسانية في ماضيها، والعناية الخاصة بواقع الأجيال السالفة في مختلف أحداثه وظواهره.

غير أن هناك فارقاً واضحاً بين اهتمام الدراسة التاريخية بواقع الأجيال السالفة ، واهتمام الدراسة الحضارية بذلك الوقاع . ويتمثل هذا الفارق في أن لكل من الدراستين منهجاً خاصاً في تناول الماضي واستحضار معالمه، وفي تصوير الظواهر والملابسات[٢].

---

(١) د/ أحمد الشريف، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٢ ـ ٢٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٠ ـ ٢٧ .

فدراسة التاريخ كانت وما تزال قائمة على ذلك المنهج التقليدي، الذي يتسم باستقصاء الحقائق وتفاصيل الجزئيات. فالمنهج التقليدي يميل إلى التخصص وتجزئة الوحدة الموضوعية في حياة المجتمع، فالمؤرخ يكتفي عادة بجانب واحد من جوانب النشاط الإنساني لذلك العصر. ولكن الحضارة الإسلامية في كافة عصورها ومراحلها وحدة تاريخية متكاملة، كما أن الأصول الروحية والمادية التي قامت عليها هذه الحضارة ظلت ماثلة في كيان المجتمع الإسلامي في كافة العصور وحتى يومنا هذا.

وهكذا يتضح لنا قيمة الدراسة الحضارية، فهي لا تنهج منهج التاريخ في تفسير الأحداث وتصور الماضي، وهي تجمع بين العنصر التاريخي والعنصر الفلسفي، وتهتم قبل كل شئ ، بما بين الاتجاهات الاجتماعية من وجوه التفاعل والارتباط، فلا تعني دراسة الحضارة بالتفصيلات أو الجزئيات، وإنما تعني بالنظرة الكلية التي تتضح من خلالها شخصية المجتمع الحضارية ، وملامح نشاطه الإنساني في كل اتجاه من اتجاهاته.[1]

الفرق بين الحضارة والمدينة.

١ ـ أن الحضارة تتمثل في القيم الإنسانية التي يمكن أن تكون غاية في ذاته. وبهذا يكون الجانب الحضاري من المجتمع يتألف من القيم الروحية والفلسفية، وكذلك القيم الفنية والأخلاقية، وبتعبير آخر تصبح الحضارة

(١) د/ أحمد الشريف ، المرجع السابق، ٢٦ ـ ٢٧ .

مقصورة على التكوين الوجداني للمجتمع ، بما في هذا معتقداته الدينية، ومفهوماته نحو الحق والخير أما المدنية فهو شيء يختلف عن الحضارة في طبيعته وأغراضه، فعلى تختص الحضارة بالنشاط الروحي والتكوين الوجداني للمجتمع، المدنية تختص بالنشاط العقلي والمدني. وعلى هذا يكون مدلول المدنية مقصوراً على ذلك النشاط العملي الذي يمارسه الفرد والمجتمع باعتباره وسيلة لا يقصد بها أكثر من التغلب على ضرورات الحياة وظواهر الطبيعة وعلى ذلك تصير المدنية مشتملة على ما اكتسبته المجتمعات في تاريخها الطويل من خبرات وتجارب في سبيل التغلب على الضرورات المادية، والسيطرة على واقع الحياة سيطرة تكفل للإنسان الاكتفاء والاستقرار.

٢ ـ إن الحضارة هي النشاط الاجتماعي الذي ترتبط بالجانب الروحي والعاطفي من الإنسان، ولا يسهل اقتباسه وانتقاله من مجتمع إلى آخر. وأن المدنية هي النشاط الاجتماعي الذي يرتبط بالجانب العقلي والمادي من الإنسان وتسهل اقتباسه وانتقاله من بيئة إلى أخرى[١].

٣ ـ تختلف الحضارة عن المدنية من حيث طبيعة النمو والتطور، فالتراث الحضاري. للمتجتمع ينشأ وينمو في صورة طفرات تاريخية، بينما تراث المدنية ينشأ وينمو ويتطور في صور تدريجية أو تراكمية.

(١) نفس المرجع.

فالحضارة تتسع لتشمل المدينة بما تدل عليه من نشاط مادي ومعرفة تطبيقه، فالحضارة أعم وأشمل من المدينة فالحضارة تشمل كل ما ينطوي عليه الكيانم الاجتماعي من مبادئ الدين والسياسة والاقتصاد والأخلاق والثقافة أما المدنية فتعبر عما حققه الإنسان في واقع الحياة من خبرات عملية(١).

والمدنية تمثل النشاط العملي المادي الذي يمارسه الفرد والمجتمع، باعتباره وسيلة للتغلب على ضرورات الحياة وظواهر الطبيعة، وبذلك تكتسب المدينة خبرات وتجارب للتغلب على الضرورات المادية والسيطرة علي واقع الحاية سيطرة تكفل للإنسان الاكتفاء والاستقرار.

ولاشك أن لكل مجتمع حضارته التي هي قيمه العليا والتي هي غاياته، أما مدنيته فهي وسائله في واقع الحياة. ومن هنا يتبين لنا أن النشاط الإنساني يسير في اتجاهين الأول روحي ووحداني والثاني عقلي وعملي ونقصد بذلك (روحي ووجداني والحضارة) و (عقلي وعملي = المدنية).

ومهما يكن من أمر، فإن أبرز ما يتميز به المدنية الغربية المعاصرة هو استغلال العلم في سبيل السيطرة على قوى الطبيعة وظواهرها، استغلالاً من شأنه أنه ممكن لإنسان من التحكم في ملابسات الواقع المادي. فقد

(١) د/ أحمد الشريف، المرجع السابق، ص ٢٨ ـ ٣٠

سيطرت المدينة على ظواهر العالم الحسي وأخضعتها لإرادة الإنسان ومطالبه، فتغلبت على حواجز المكان والزمان، والغاء المسافات والحدود التي كانت تفصل بين المجتمعات البشرية بعضها عن بعض. وكان من نتيجة ذلك أن أصبح العلم المداية متقارب الأطراف، ولعل ثورة التكنولوجيا والمعلومات قد جعلت العلام أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة.

ولا ريب أن الحضارة الإسلامية قد وجهها الإسلام وأظلها بظله وطبعها بطابعه فالدراسات النظرية والعملية والأطعمة والأشربة والعقاقير والأسلحة والحبوذ والنشاط التجاري والبحري تدل على مساهمة الإسلام في كل ذلك مساهمة أكيدة وفعاله[1].

(٢) نفس المرجع، ص ٣٠-٣٧.

أسس ومقومات الحضارة الإسلامية

ببعثة النبي ﷺ ودعواته إلى الإسلام، بدأت تظهر حضارة جديدة مرتبطة بالإسلام كدين ودولة وتاريخ. ومبعث هذه الحضارة من أصول وأسس كان لكل منها دوره في نشأتها وخصائها مثلها أهمها القرآن الكريم والسنة المطهرة وأمة العرب واللغة العربية والشعوب الإسلامية والتأثيرات الأجنبية من الحضارة الشائعة.

لاريب أن أهم ركائز الحضارة الإسلامية هي الدين الإسلامي واللغة العربية. والدين الإسلامي يشمل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

١ ـ الدين الإسلامي: انتشر الإسلام انتشاراً تلقائياً في أجزاء كبيرة من العلام لعدالته وسماحته ولم يكره الإسلام أحداً على الدخول فيه، ووحد الإسلام بين العرب وبين الشعوب الأخرى فصبغها بصبغة واحدة على أساس من العقيدة ومبادئ الإسلام السمحة.

وهكذا اصطبغت الحضارة بصبغة دينية واضحة في تفكير أعلامها وأسلوبهم. ومن أهم أركان الدين الإسلامي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أ ـ القرآن الكريم: لاريب أن القرآن الكريم هو الأصل الرئيسي الذي يبعث منه الحضارة الإسلامية إذ كان المصدر الأساسي للإسلام الذي تنسب إليه، ولقد نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ على مدى ثلاث

وعشرين سنة التي ظل يدعوا فيها إلى الله سبحانه وتعالى وكان النبي يتخذ كتبه يدونون الآيات عند نزولها، كما كان المسلمون يقبلون على حفظها عن ظهر قلب، وهكذا استخدم في حفظ القرآن الكريم وسيلتان هما الحفظ والتدوين، ثم قرر ترتيب سورة وآياته بشكل نهائي قبيل وفاة الرسول، وبدأ جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر من المدوناتن لدى كتبه الوحي وبمساعدة حفظته. وفي عهد عمر حفظ المصحف عند ابنته حفصه زوج الرسول ﷺ. وفي عهد عثمان دون منه نسخ وزعت في الأقطار ثم تداول المسلمون هذه المصاحف ونسخوا منها. ولازال المسلمون يحرصون على نسخ القرآن حتى لا يتعرض للخطأ والتغيير(١).

وفي القرآن الكريم يكمن سر أصالة الحضارة الإسلامية وعظمتها، فهو كتاب الله يهدي للحق فيه خير البشرية، فهو يدعو إلى الوحدانية وفي تعاليم القرآن سعادة البشر إذ ينظم المجتمع على أسس سليمة تضمن له الأمن والرخاء. والسعادة فهو يضمن حرية الرأي والعقيدة ويدعو إلى التعارف والتحاب وينصف المرآة.

ب ـ السنة النبوية المطهرة: استوحت الحضارة الإسلامية سيرة النبي وسنته لتكون الأساس الثاني من أصول الدين الإسلامي. والإيمان بالنبي ﷺ هو ثاني شطري العقيدة الإسلامية . والسيرة محيطة بجوانب الحياة

(١) حسن الباشا ودراسات في الحضارة الإسلامية القاهرة ١٩٩٢ ص ٥ ـ ٨ .

وأطوارها. وقد تخصص في كتابة السيرة علماء وقفوا حياتهم عليها. وقد أمر الرسول بكتابة كثيرة من سننة مثل خطبته يوم فتح مكة ورسائله إلى الملوك وأحكام الزكاة وأحاديث النبي، وبفضل النبي وسنته طبعت الحضارة الإسلامية بهذا الطابع الذي يتمثل في حب الخير والعمل الصالح والصدق في المعاملة والإخلاص في العمل، والتسامح والرفق والحرص على العلم والتعمير والاتزان وغير ذلك من الصفات العديدة[1].

٢ ـ اللغة العربية: اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة القرآن الكريم، ومن ثم جاء القرآن الكريم بلسان عربي مبين. ومن ثم صبت الحضارة الإسلامية في دعاء اللغة العربية، وإلى هذه اللغة ترجمت معارف البشرية وتجاربها القديمة، وعندها نقلت الحضارة والثقافة الإسلامية إلى الشعوب الأخري.

فاللغة العربية تمثل الأداة التي عبرت بها هذه الحضارة عن نفسها، وقد استطاعت أن تنتصر اللغة العربية في جميع البلاد التي فتحها العرب فحلت محل اللغات القديمة كاليونانية والسريانية والقبطية وغيرها.

وأصبحت اللغة أداة حضارة عظيمة وأصبحت لغة عالمية تصلح لكل زمان ومكان لإنها لغة القرآن ولغة أهل الجنة، وقدساعدت اللغة العربية على توحيد الشعوب العربية والإسلامية.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٧ ـ ٨.

ويتصل باللغة العربية الخط العربي الذي ازداد منذ ظهور الإسلام. واحتل الخط العربي مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية الأخرى، والخط العربي مثل اللغة العربية وسيلة التعبير عن الحضارة الإسلامية وعاملاً مهماً من عوامل الوحدة فيه.

واللغة العربية من أرقى لغات العلم وقد أصبحت عالمية يتكلم بها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ويعبرون بها معارف غيرهم ويثبتون بها أفكارهم وعلومهم، وهكذا كانت اللغة العربية أداة سليمة ودقيقة للتعبير العلمي والفني[1].

٣ ـ أمة العرب: من الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية أمة العرب، فالنبي ﷺ عربي والصحابة عرب، والعرب هم أول من تلقى دعوة الإسلام وآمن بها وجاهد في سبيلها، وعلى يد العرب دخل الإسلام كثيراً من الأقطار، وانتشر بين سائر الناس، ومن ثم طبعت الحضارة الإسلامية بطابع عربي.

وكان للعرب قبل الإسلام حضارة لم تكن تقل عن حضارة غيرهم من الأمم، وكانت لهم لغة ناضجة اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون لغة كتابة الكريم ﴿**إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون**﴾ كما كان لهم آداب راقية من شعر ونثر وقصص وخطابة وحكم وأمثال وكلها أمور لا تنمو عفوا ولكنها تنمو على مدى تاريخ طويل.

(١) نفس المرجع، ص ١٠ ـ ١١

وكان للعرب صلات تجارية خارجية مع الأمم المتحضرة ومن ثم كانوا على علم بالتطورات الحضارية وتهيأت لهم الفرص للاقتباس من غيرهم وهكذا اصقل العرب بفضل تاريخهم وخبراتهم وتجاربهم، وهيؤا لحمل رسالة الإسلام ونشرها. ولو كان العرب همجاً كما زعم بعض المغرضين لما استطاعوا القيام بأعباء رسالة الإسلام ، ولما نجحوا في نشرها هذا النجاح المذهل كما ساعد العرب على القيام بحمل أعباء هذه الرسالة كونهم فرساناً مهرة، ممامكنهم من سرعة الحركة والانتشار في الإرض، علاوة على تحملهم الصعاب وتحليهم بالصبر والنشاط والثقة بالنفس والحكمة. وكان لهذا كلمة أثره في نشأ الحضارة الإسلامية وتكونيها وتطورها، وكان من الطبيعي أن يكون للعرب شأن كبير في إبداع هذه الحضارة في إبداع هذه الحضارة التي نشأت في رحابهم وديارهم[1] .

٤ ـ الشعوب الإسلامية: كان للشعوب الكثيرة التي دخلت في الإسلام أثر في تكوين الحضرة الإسلامية،وذلك أن العرب قد فتحواكثيراً من البلدان وامتدت دولتهم من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وهكذا انضوى تحت لواء الإسلام شعوب كثيرة كالفرس والهنود والروم والترك والمغول والبربر كن لهم ماضثي حضاري كبير.

---

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب، ص ٦٠ وما بعدها.

ولا شك أن هذه الشعوب قد أسهمت بتراثها الحضاري تارة وبخصائصها التقليدية تارة أخرى في تشكيل الحضارة الإسلامية. وفقد حافظ العرب على تراث هذه الشعوب وعملوا علي تنمية تقاليدها الفنية والصناعية، وهكذا ساعدت الخبرات الفنية والثقافية والعلمية للشعوب المفتوحة في تشكيل الحضارة الإسلامية مع احتفالها بطابعها العربي وروحها الإسلامية الأصلية(١).

٥ ـ الإطار الجغرافي: بدأ نشوء الحضارة الإسلامية في بلاد العرب أولا حيث ظهر الإسلام، ثم أخذت تنمو في الأقطار التي فتحها العرب بعد ذلك والتي فيه الحضارة الإسلامية أثره في تكشيلها.

وهذا الإطار الجغرافي يشمل رقعة متصلة من الأرض تمتد من الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، وهذه الرقعة ذات تضاريس مختلفة مما يؤدي إلى تنوع شعوبها وحيواناتها ونباتاتها ومنتجاتها، وهي غنية بثرواتها. وهكذا ظهرت الحضارة الإسلامية في بيئة غنية خصبة مكتفية بذاتها مما زودها بطابع الثقة والأصالة(٢).

٦ ـ التأثيرات الأجنبية: لاشك أن الإطار الجغرافي قد هيأ الفرصة للحضارة الإسلامية ممامكنها من الإفادة من الأصالة والخبرات البشرية

---

(١) نفس المرجع، ص ٦٥ ـ ٧٠

(٢) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ص ١٣ .

السابقة والمعاصرة وهيألها الحيوية وإمكانيات الرقي والتطور. ذلك أن هذا الإطار الجغرافي كان مهد الديانات السماوية ومواطن أقدم حضارات العالم، كما أنه كان ملتقى الطرق التجارية والتيارات الثقافية.

وقد أجمل فيليب حتى أهم التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية فيما يلي:

١ ـ تأثيرات هلينية (يونانية) دخلت الحضارة الإسلامية عن طريق المدارس اليونانية في أنطاكية والأسكندرية ونيسابور وغيرها.

١ ـ تراث يهودي ومسيحي مستمد من الثوراة والإنجيل.

٣ ـ تأثيرات إيرانية في مجال الإدارة والحكم والفنون.

٤ ـ نظم رومانية في شكل بيزنطي.

٥ ـ خليط من الثقافة الهندية والصينية مثل الأرقام الهندية، وصناعة الورق الصينية ومهما يكن من أمر، فإن هذه التأثيرات الأجنبية لم تكن عوامل أساسية في تكوين الحضارة الإسلامية، ذلك أن الأساس الذي قامت عليه الحضارة كان الثقافة العربية الإسلامية، والإدارة العربية النابعة من رأي سليم وحماس وإعتزاز وثقة بالنفس، وروح الابتكار[١]. وهذه العوامل جميعها أدت إلى ظهور الحضارة الإسلامية مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية.

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، ص ٣٠٦ ـ ٣٢٦.

تعددت مراكز ازدهار الحضارة الإسلامية. ففي مكة والمدينة المنورة وجزيرة العرب بعامة نبعث أصولها، وكملت أسسها الروحية والحلقية بفضل الإسلام.

وفي دمشق أخذت الحضارة الإسلامية تتشكل بمظاهرها المختلفة في عصر الخلافة الأموية. وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية نضجت الحضارة ووصلت مستوى رفيعاً منذ أواخر القرن الثاني بعد الهجرة. وفي الأندلس ازدهرت الحضارة الإسلامية حتى ناقشت بلاد الأندلس بلاد الخلافة العباسية. هذا ولم يقتصر ازدهار الحضارة الإسلامية على هذه البلدان، بل انتشرت في كثير من بلاد الإسلام مثل مصر وإيران والهند وتركيا وشمال أفريقيا ووسط أسيا .

جمال الحضارة الإسلامية

١ ـ تفوقت الحضارة الإسلامية في سرعة ظهورها وازدهارها بفضل الإسلام الذي كان التربة الصالحة والأساس الحقيقي لسائر المظاهر الحضارية والإسلامية.

٢ ـ عني الإسلام بتنظيم الدولة على أحسن الأسس الحقيقي وأفضل المبادئ، وحظي المجتمع الإسلامي بتقاليد وعادات تنبع من الفطرة السليمة وتتفق مع الروح الإنسانية.

٣ ـ ومنذ ظهور الإسلام وجد الاهتمام بالعلم والثقافة والحرص على التعليم حتى تفوق المسلمون على غيرهم من الشعوب، وتركوا بصماتهم في التراث المادي كالفنون والعمارة والصناعات والزراعة والتجارة.

التراث الروحي

إن أفضل ما اشتملت عليه الحضارة الإسلامية هو تراثها الروحي والديني أي الإسلام، ومصدر الإسلام هو القرآن والسنة النبوية الشريفة، وقد جاء الإسلام بالعقيدة الحقة الصحيحة التي تتلخص في الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ووحدانية الإسلام وحدانية سهلة خالية من التعقيد.

وأمر الإسلام بالتسليم بقضاء الله وقدره والإيمان بالبعث والجزاء والثواب والعقاب. ولم يقف الإسلام عند حد العبادات، بل جاء بخير الدنيا، ووضع أسس مبادئ التنظيم السياسي والتشريع والاقتصاد والمعاملات، وبذلك وضع أسس الفلاح للبشرية. وحض الإسلام على حسن المعاملة والعدل.

وكان لفضائل الإسلام الفضل في انتشاره أي أن الإسلام انتشر بفضل سماحته وتسامحه وعده وتعاليمه الخيرة لما فيه سعادة البشرية.

وليس بالقوة كما ذكر بعض المستشرقين المغرضين، وقد رد عليهم كثير من المستشرقين مثل غوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب[1].

أوروبا في العصور المظلمة

يطلق اسم العصور المظلمة في أوروبا في الفترة ما بين سقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام نهضة العصور الوسطى أواخر القرن الحادي عشر.

وقد سادت أوربا في تلك الفترة المظلمة سحابة كثيفة من التأخر الحضاري لأن سقوط الإمبراطورية الرومانية تدريجيا في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا (غاليا) وانجلترا، وغيرها من البلدان التي خضعت للرومان أيام سطوتهم.

وهكذا أذبلت المدن الرومانية وأقفلت والمدارس أبوابها وانتشر الجهل، ولم يبق أثر للحضارة والمعرفة في غرب أوربا التي بصيصاً ضيئلاً ينبثق من الكنائس.

وإذا كان التعليم قد انصف بطابع ديني في العصور الوسطى، فذلك يرجع إلى عدم وجود فئة لها رغبة في التزود ببعض المعرفة سوى رجال

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ١٦ ـ ٢٢ .

الدين، وذلك بحكم مركزهم وطبيعة وظيفتهم في المجتمع. ذلك أن وظيفة رجال الدين ومهمتهم في ووعظ الناس وإرشادهم إلى الطريق السوي وإفهامهم روح الإنجيل وتعاليمه تطبت من الكنيسة أن تعد رجل الدين إعداداً خاصاً يضمن القيام بمهامه على أحسن وجه. ولكن فهم النصوص الدينية والقيام بشرحها العامة الناس تطلب الإلمام بقدر كاف من الدراسات الدنيوية وبخاصة اللغة اللاتينية. ومن ههنا أصبح من الضروري تعليم رجل الدين تعليماً دنيوياً تتخذه أساساً لثقافته الدينية(١).

وقد بلغت العلوم الدنيوية في مدارس ذلك العصر أوسع آفاقها فيما عرف باسم الفنون السبعة الحرة، وهي التي نقسمت إلى مجموعتين: الأولى ثلاثة شملت النحو والبلاغة والجدل، والثانية رباعية ضمت الحساب والهندسة والفلك والموسيقى. أما المادة التي تداولتها هذه الفنون فكانت مستقاه من الكتب التي عاصرت الدور الأخير للحضارة الرومانية القديمة، أي أن هذه الفترة هي التي شهدت غزوات البرابرة من ونشرت ستاراً مظلماً كثيفاً فوق بلاد الغرب الأوربية. ولم تكن هذه المعلومات ذات قمية لأنها سطحية ومختصرة(٢).

ولما كانت الكنيسة قد أقرت تدريس الفنون الحرة في مدارسها، فإن

(١) د/ سعيد عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، القاهرة ١٩٦٣. ص ٣٧-٣٨.

(٢) د/ سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى جـ٢ ص ١٢٤-١٢٥.

ذلك كان على أسس مسيحية، لأن المدارس تحولت في غرب أوروبا لأعداد وتخريج رجال الدين للقيام بمهامهم في المجتمع. كذلك يلاحظ أن كثيراً من الجرمان الذين أقاموا ممالك لهم في غرب أوربا أظهروا نفوراً قوياً من التعليم، حتى أن ثيودر ملك القوط الشرقيين حرم إرسال أبناء القوط إلى المدارس، محتجاً بأن الصغير الذي يشب على الخوف من عصا المعلم لن تكون لديه في المستقبل الشجاعة الكافية لمواجهة السيوف والحراب.

وهكذا ازداد أشراف البابوية على توجيه التعليم ورسم سياسته، في العصور المظلمة، وأصحت المدارس الديرية والأسقفية تهتم بتعليم اللاهوت والكتاب المقدس والموسيقى الدينية وسير القديسي. وساعد على ضعف الدراسات الإنسانية والثقافة الراقية كراهية رجال الكنيسة في الغرب لها. فالبابا جريجوير العظيم أشهر بكراهيته للدراسات التي لاتساعد على فهم العقيدة المسيحية، لأن دراسة تراث الوثنيين مضيعة للوقت[1].

(١) د / أحمد الشريف، المرجع السابق ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

ومن هنا يبدو أن الدراسة اللاهوتية (الدينية) قد تغلبت علي الدراسات الإنسانية، وكيف كانت هيمنة الكنيسة في العصور الوسطى من العوامل الأساسية التي أدت إلى عدم ترك مجال للدراسات القلمية، لأن العقيدة المسيحية تقوم على أساس الإيمان في حين يعتمد العلم على التعقل. هذا إلى أن إصرار الكنيسة على توجيه الناس نحو الحياة الباطنية أعمى أنظار المعاصرين عن العالم الطبيعي المحيط بهم. فالقديس أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) يبدي دهشته من أن الناس يذهبون بتفكيرهم بعيداً للتأمل في ارتفاع الجبال أو دراسة مدارات الكواكب ويهملون التأمل في أنفسهم. بل أن القديس وأغسطين نفسه يهزأ من فكرة كروية الأرض التي قال بها قبل ذلك اليونانيون. وإلى جانب هذا الانحطاط في التفكير العلمي انتشر الاعتقاد في الخرافات والمعجزات بين أهالي الغرب الأوربي في العصور الوسطى، حتى قضى السحر على البقية الباقية من المعرفة العلمية عند الأوربيون ولم يكن الروم البيزنطيون أحسن بكثير من الغرب الأوربي، إذ أغلق الأمبر اطور جستيان مدرسة أثينا ٥٢٩م وبذلك انطفأت شعلة أخرى من علوم اليونانيين وفلسفتهم، وفر إلى البلاط الفارسي جمع كبير من العلماء والفلاسفة[١].

(١) د/ أحمد الشريف، المرجع السابق، ص ٢٦ - ٢٧.

وهكذا نجد أنه في الوقت الذي أخذ المسلمون يقيمون بناءاً حضارياً شامخاً ويسيرون بالحضارة البشرية سريعاً في طريق التقدم والعمران، كن الغرب الأوربي، يعيش في ظلمات الجهل والتأخر والانحطاط الأدبي والعلمي والفني، فظلت أحوال الشعوب الأوربية حيث هي وساءت أكثر عما كانت عليه أما في الجانب المادي من الحضارة فكانت معظم الأنحاء التي تعرف بوسط أوروبا وغربها تكسوها الأحراش والمستنقعات، وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة، وإذا وجدت ضياع (قرى) زراعية فإن أمر فلاحتها كان متروكاً للأقنان والعبيد وتضم معظم شعوب أوروبا، في صيدكان النبلاء والفرسان ورجال الدين يمثلون الأقلية المُنَعَّمة في المجتمع الأوربي.

لقد ظهرت في الغرب الأوربي حركة حضارية في آواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للميلاد، ولكنها كانت فاترة قصيرة العمر سريعة الزوال ، لأنها كانت مصطنعة اصطنعها شار لما فما مات ماتت معه أو بعده بقليل. هذا إلى أن هذه النهضة يطلق عليها اسم النهضة الكارولنجية، والتي وصفت بأنها ضيقة الأفق، واستهدفت خدمة الدين ورفع مستوى رجال الكنيسة، وقتصرت جهود أعلامها على إحياء جانب من التراث الكلاسيكي القديم دون أن يحاولو الابتكار أو التجديد. وزاد من انحطاط الحضارة الأوربية عقب وفاة شارلمان الأخطار الخارجية الهدامة التي تعرضت لها أوربا في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، فعناصر الفايلنج التي كانت تسكن السويد والنرويج والدنمرك قامت بحركة

توسعية أغارت على معظم بلدان أوربا ودمرت المدن والأديرة والكنائش، مما عرض العرب الأوربي لموجة كاسحة من اخراب والتدمير. وفي الوقت الذي كان الفايلنج يقومون بغاراتهم على غرب أوربا، إذا بجموع هائلة من القبائل الأسيوية (الهنغاريون أو المجرمون) يزحفون على وسط أوروبا حتى وصلوا ألمانيا، وهم ينهبون ويخربون ويدمورن كل ما يجدونه[١].

وفي أواخر القرن الحادي عشر للميلاد أفاق الغرب من ظلمات العصور الوسطى ليجد نفسه أمام حضارة إسلامية شامخة البناء، لم تترك أدباً ولا علماً ولا فناً إلا أسهمت فيه بقسط وافر. وذهب طلاب العلم من الأوربيين إلى مراكز الحضارة الإسلامية لينهلوا من معينها الفياض، ويترجمون كل ما استطاعوا من علوم المسلمين ومؤلفاتهم مما ترتب عليه قيام حركة حضارية شاملة في غرب أوربا سميت بالنهضة الوسيطة[٢].

ولم تكن هذه النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر مثل النهضة الكاردلية في القرن التاسع، وإنما جاءت نتيجة حركة طبيعية تضافرت عوامل عدة لازدهارها وانتعاشها، ولذلك جاء هذه النهضة أطول عمراً وأكثر استمراراً وأوسع أفقاً من نهضة القرن التاسع. كذلك لم يقف هدف النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر عند حد فرع المستوى الثقافي لرجال الدين عن طريق إحياء بعض علوم القدماء التي يمكن أن تفيد منها

(١) د/ سعيد عاشور، أؤروبا في العصور الوسطى، جـ٢، ص ١٢٦.

(٢) فيليب حتى، تاريخ العرب جـ، ص ١٣٩.

الكنيسة، وإنما تعدت ذلك إلى الإنشاء والابتكار والتجديد بقصد إشباع غريزة الاطلاع وتثقيف الفكر.

أما العوامل الأساسية التي أدت إلي قيام نهضة أوربية شاملة في القرن الثاني عشر، فعديدة ومتنوعة: ـ

١ ـ ازدياد النشاط التجاري في شمال إيطاليا مما أدى إلى نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية.

٢ ـ الاستقرار الذي تمتعت به بلاد الغرب بعد انتهاء الغارات من قبل الفايلنج والمجر من جهة وأخذت الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية تنتظم من جهة أخرى. ولا شك أن هذا الاستقرار صاحبه من أمن وسلام أدى إلى ازدياد الاتصال الحضاري، كما أدى إلى التفرغ للجوانب الثقافية والحضارية.

٣ ـ العامل الأساسي هو ازدياد الاتصال الحضاري بين غرب أوربا ومراكز المدنية والإسلامية، ويرجع الفضل في ازدهار الدراسات في غرب أوربا إلى المؤلفات العربية التي ترجمها الأوربيون إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر[١].

ومهما يكن من أمر فإن كانت حضارة الغرب الحديثة تستمد أصولها من النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، وهذه ترجع جذورها إلى

(١) د/ سعيد عاشور النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة ص ١٢٠ ـ ١٢٣ .

القرن الثاني عشر، فإن معنى ذلك هو أن حضارة أوروبا الحديثة قامت على أساس واضح من الحضارة الإسلامية.

طرق انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا

أخذت الحضارة الإسلامية تشق طريقها إلى غرب أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وسلكت هذه الحضارة عدة طرق أهمها ثلاثة هي: الأندلس أولاً، وصقلية ثانياً، وبلاد الشرق الأدبي وما ارتبط بها من حركوب صليبية ثالثا: وسنتحدث عن هذه الطرق لبيان أهمية كل طريق في الاتصال الحضاري بين العالم الإسلامي من جهة والغرب الأوروبي من جهة أخرى.

١ ـ الأندلس(أسبانيا)

كانت أسبانيا عندما فتحها المسلمون في أوائل القرن الثامن للميلاد لا تختلف عن بقية بلاد عرب أوربا في ذلك الوقت من حيث انتشار الجهل والتأخر والفوضى بسبب النزاع الاجتماعي والانحلال الداخلي والفتن الطائفية ولعل أبكر مظاهر هذا الانحلال والانقسام أن أحد أقرائها اشترك مع رئيس أساقفة أشبيلية في مساعدة المسلمين على فتح أسبانيا. ولكن المسلمين بعد أن فتحوها نقولها إلى مرحلة استقرار وإنشاء، فاتجهو نحو إحياء الأرض الميتة وتعمير المدن الخربة وتنشيط التجارة الراكدة وإنعاش الصناعة المتأخرة، حتى أصبح الأندلس في ظل خلافة قرطبة أغنى الأقطار الأوروبية وأكثرها ازدحاماً بالسكان(١).

(١) جوستاف جرونيبادم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز جاويش القاهرة ص ٨١ ـ ٨٢ ،

انصرف المسلمون نحو العناية بالآداب والعلوم والفنون، وابتكروا وجددوا مما أتاح لأوروبا مورداً عذباً استساغت شرابه، فظلت تنهل في الحصول على علوم الشرق الأإسلامي أما باستدعاء علماء المشرق إلى الأندلس مثل أبي علي القالي، وإما سفر بعثات من عرب الأندلس إلى المشرق للتزود بالعلوم والمعرفة مثل يحيى بن يحيى الليثي، وإما عن طريق جمع الكتب التي هي أهم وسائل النشاط العلمي حتى أحضر الخليفة الحكم الثاني عيون التأليف والمصنفات العربية في العلوم القديمة والحديثة، فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم حتى بلغت مكتبة الألاف من الكتب(١).

وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها بالأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد، عندما أصبحت قرطبة ـ عاصمة الخلفاء الأمويين تمن أعظم مدن العالم المتحضر، وبها ما يزيد على مائتي ألف منزل يسكنها مليون نسمة، ويكفيها فخراً في ذلك العصر أن أهلها كانوا يستطيعون المشي في شوارعها ليلاً في ضوء المصابيح العامة، في حين ظلت مدينة لندن سبعة قرون لا يوجد في طرقاتها مصباح واحد يضيء ليلاً. وهكذا استمر نور الحضارة الإسلامية ساطعاً في الأندلس وبخاصة في الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية، حتى امتد ليضيء غرب أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وما بعدهما.

(١) د./ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على أوروبا ص ٢٢١ ـ ٢٢٥ .

وساعد على هذه النهضة العظيمة بالأندلس سياسة التسامح التي اتبعها المسلمون تجاه أهل الذمة من مسيحيين ويهود. فأقبل المستعمرون الأسبان على استخدام اللغة العربية، بل فضلوها على اللاتينية، كما تتلمذ كثير من اليهود على الأساتذة العرب.

وهكذا نشأت مدرسة كبيرة من غير المسلمين استطاع أعضاء القيام بدور السفراء بين الحضارة الإسلامية من ناحية، وأهالي غرب أوروبا من ناحية أخرى . وشارك اليهود في الحياة الثقافية بالأندلس كان جزء لا يتجزأ من نشاط المسلمين الحضاري. ويتضح مدى إعجاب الأسبان بثقافة العرب وإقبالهم على حضارة المسلمين فيماذكره الفارو: إن إخواني المسيحيين يدروسن كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لتعلم أسلوب عربي بليغ..[1].

وعندما سقطت طليطلة في أيدي المسيحيين سنة ١٠٨٥ ازداد تدفق طلاب العلم من مختلف بلدان غرب أوروبا على اسبانيا للاستزادة من الدراسات الإسلامية، فنشطت حركة الترجمة عن العربية، وترجم إلى اللاتينية كثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، كما ترجم عن العربية كثير من مؤلفات اليونانيين مثل كتب جاليتوس وبقراط وافلاطون وأرسطو واقليدس وغيرهم. وقد وجد من حكام أسبانيا المسيحيين الثقافة العربية الإسلامية مثل الفونس الخامس ملك قشتاله وليون الملقب بالحكيم (١٢٥٢ - ١٢٨٤) .

(١) د/ سعيد عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ، ص ٥٢ - ٥٣ .

وإذا ظن بعض المسيحيين المتعصبين مثل رئيس الأساقفة اكزيمني الذي أحرق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب بعد جلائهم عن أسبانيا ، إنهم يستطيعون محو أثار الحضارة الإسلامية من الأندلس، فإن هؤلاء فإنهم أن ما تركه العرب من طرق معبدة وقصور مرفوعة، ومشافي وفنادق وغيرها كل ذلك كان كفيلاً بتخليد اسم العرب، حتى قال لوبون إنه لا يوجد في أسبانيا المعاصرة من أعمال الري سوى ما أتمه العرب(١).

وأياً ما كان الأمر، فإن العرب اختلطوا بأهل الأندلس وتزوجوا من نساءها ونشروا دنيهم ولغتهم وحضارتهم أينما ساروا. والعرب شعب متفتح فأقبلوا يعطون ويأخذون ولم يفرضوا دينهم ولكن الأوضاع الاجتماعية الظالمة في عهد القوط دفعت بأفواج كثيرة إلى الإسلام. وهكذا بدأت في الأندلس منذ اللحظة الأولى عملية امتزاج اجتماعي واسع النطاق بين مختلف العناصر التي أصبح الشعب الأندلس يتألف منها وكان للتبادل الحضاري والثقافي العربي نفوذ هائل على أسبانيا المسيحية.

ولكن الدولة الإسلامية في الأندلس أخذت تضعف شيئاً فشيئاَ، وأخذت الممالك المسيحية تزداد قوتها وتشتد، فسقطت طليطلة في أيدي المسيحيين عام ١٠٨٥ م وانتهى الأمر بسقوط مملكة غرناطة الصغيرة في سنة ١٤٩٢ م

(١) نفس المرجع

٢ ـ صقلية

فتح العرب الأغالبة حكام تونس جزيرة صقلية التي كانت خاضعة للدولة البيزنطية سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧ م وبقيت صقلية في أيدي المسلمين حتى استولى عليها النورمندوين في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١م .

وقد انتقلت علوم المسلمين إلى غرب أوروبا عبر جزيرة صقلية، ذلك أن المسلمين عندما ثبتوا أقدامهم في صقلية في القرن التاسع للميلاد اهتموا بالزراعة فحفروا الترع والقنوات وأنشأوا المجاري المعقوفة التي كانت مجهولة قبلهم، كما أدخلوا زراعة القطن وقصب السكر. وفي الصناعة استغلوا ثروة الجزيرة الطبيعية فاستخرجوا منها الفضة والحديد والنحاس والكبريت، وأدخلوا فيها صناعة الحرير. أما تجارة صقلية فقد اتسع نطاقها على أيام العرب ولم يبق الآن في صقلية سوى القليل النادر من سابني العرب، ولكنها تشهد جميعاً بالروعة والجمال الأخاذ. وقد وصف الإدريسي مدينة بالرمو (عاصمة صقلية) على عهد روجر الثاني ـ أي بعد زوال حكم العرب بقليل . إذ أشاد بقصورها ودورها ومتنزهاتها. وهكذا يبدوا الفارق الكبير بين أحوال صقلية الثقافية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية عند بداية احتلال المسلمين لها[١].

---

(١) د/ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٣ ـ ٥٥ .

غير أن الحضارة الإسلامية لم تنته بانتهاء حكم المسملين للجزيرة، فقد شجعها سلوك النورمان الذين قاموا بحماية العرب والاعتناء بهم لادراكهم أن ذلك سيعود بالفائدة عليهم. وكتب روجر الأول (١٠٦١ - ١١٠١) مراسمية بالعربية إلى جانب اللاتينية واليونانية، وامتازت النقود التي سكها هذا الملك بأن وجهها جاء مكتوباً عليه بالعربية، والوجه الآخر مكتوب عليه باللاتينية واليونانية كما أن بعض نقوده اشتمل على رمز الإسلام والبعض الآخر على شعار المسيحية. وقد استعان خلفاء روجر على سنته فاستعان روجر الثاني (١١٢٩ - ١١٥٤) بعلماء من العرب، كما درس وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٤) اللغة العربية ورجع إلى مستشاريه من العرب في أهم شئونه. وقد ارتدى ملوك صقلية رداء من الحرير مطرز بكتابات عربية بالخط الكوفي، يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٣ ت. كذلك اتخذ ملوك النورمان بصقلية لأنفسهم حراساً من العرب، ارتدوا زيا اختلف عن زي الحراس النورمان.

وليس هناك من شك في أن الشعر العربي كان يمارس في بلاط ملوك صقلية النواما. وقد برزت المدرسة الصقلية في العشر في عهد الإمبراطور فردريك الثاني في القرن الثاني عشر، لإحاطته نفسه بمظاهر شرقية عربية، حيث أنه تعلم اللغة العربية، وشجع ترجمة الكتب العربية كما شجع الجغرافيين والفلكيين والأدباء العرب[1].

(١) د/ عز الدين فراجا، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .

٣ ـ الشرق الأدني والحروب الصليبية

كان لبلاد الشام والشرق الأدنى أثر في نقل مظاهر الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوروبي في العصور الوسطى وكان ذلك من خلال الحروب الصليبية التي نشأ عنها صلات سياسية وحضارية وتجارية بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي.

فالصليبيون جاءوا إلى منطقة الشرق وبلاد الشام للحرب لا لطلب العلم، وامتازت حياتهم الجديدة بالخشونة وإقامة القلاع والحصون والإبقاء على معاقلهم التي أقاموها في الشام وسط محيط إسلامي واسع. ولم تخف وطأة الحرب إلا بالقضاء على آخر المعاقل الصيبية في الشام ـ وهي مدينة عكا ١٢٩١م.

وهكذا لم تتح للصليبيين في اشرق الأدنى حياة مستقرة وهي الحياة الضرورية لمباشرة النشاط الفكري والحضاري، ولم تتح لهم فرصة الاتصال السلمي بالعرب بالقدر الذي أتيح لإخوانهم الأوربيين في الأندلس وصقلية. حقيقة أن الصليبيين استطاعوا تأسيس عدة إمارات قوية بالشام، كما أسسوا مملكة بيت المقدس الشهيرة، ولكن جميع هذه الوحدات الصليبية كانت في حقيقة أن الصليبيين استطاعوا تأسيس عدة إمارات قوية بالشام، كما أسسوا مملكة بيت المقدس الشهيرة، ولكن جميع هذه الوحدات الصليبية كانت في حقيقة أمرها معاقل أو تمكنات

حربية متناثرة وسط محيط واسع في الخصوم، فخيم عليها جميعاً جو من الرعب والفزع لا تستقيم معه بأي حال حياة علمية مثمرة[١].

ويجب أن نعترف بأن الحروب الصليبية لم تخل من اتصالات حضارية وثقافية بين المسلمين والصليبيين. فمن الناحية اللغوية دخلت كثير من المصطلحات والكلمات العربية في اللغات الأوربية. كذلك أثرت الحروب الصليبية في تطور فن الحرب عند الأوربيين لا سيما فيما يتعلق ببناء القلاع والحصون. هذا بالإضافة إلى ما أدت إليه الحروب الصليبية من تقدم حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهادمة واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم، وإرسال الرسائل ا لحربية عن طريق الحمام الزاجل. ومن المحتمل أن يكون الشرق الإسلامي إبان الحروب الصليبية هو المصدر الذي أخذ عنه الغرب الأوربي نتيجة للاتصال بالمسلمين في الشام. فقد أدت الحروب الصليبية إلى قيام نشاط تجاري بين الشرق والغرب وأثر هذا النشاط في أحوال أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وقد أثرت الحياة العربية في الحياة الأوربية نتيجة لنمو التبادل التجاري، فنلاحظ انتقال الحياة العربية في الحياة الأوروبية نتيجة لنمو التبادل التجاري، فنلاحظ انتقال نباتات وحاصلات وأشجار جديدة من شرق البحر المتوسط إلى غربة مثل السمسم والأرز والليمون والبطيخ

(١) د/ سعيد عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية ص ٥٧ ـ ٦٠

والثوم، وانتشار كثير من العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية في الغرب، هذا فضلا عن انتقال بعض العادات والتقاليد والنظم الإسلامية إلى الفرنجة.

والواقعن أنه جاء وقت على غرب أوروبا في العصور الوسطى ضاق فيهن الناس بتزمت الكنيسة التي حصرت تفكيرهم داخل دائرة ضيقة، فأخذوا يتطلعون إلى حياة علمية وفكرية أخصب وأكثر تنوعاً. وفي الوقت الذي قيدت الكنيسة تفكير الأهالي في غرب أوروبا وألزمتهم بحصر نشاطهم الفكري داخل حدود معينة، وكان مفكروا المسلمين من أمثال ابن رشد ـ يضربون مثلاً فريداً في حرية الفكر. وكان أن ولي الأوربيون وجوههم شطر حضارة الإسلام، وانصرفوا إلى دراسة علوم المسلمين، مما ترك أثار واضحة في الفكر الأوروبي. ومن هؤلاء أديلاردالياتي الذي درس علمي الفلك والهندسة الذي زار مصر والشام والأندلس، ومثله ليوناردو فيبوناتي الذي طاف بمصر وبلاد الشام وتعلم الجبر من المسلمين[1].

على أن الاستفادة من خلاصة الفكر العربي لم تتم إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عكف فيها فريق من المستعربين على نقل كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية، وبذلك أمكن للغرب الأوروبي الاستافدة على نطاق واسع من انتاج الفريحة العربية الإسلامية.

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

٤ ـ حركة الترجمة

شهدت أوروبا نهضة فيمابين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، وهذه النهضة ارتبطت في الجانبين العلمي والفلسفي بالتراثين اليوناني من جهة والعربي الإسلامي من جهة أخرى. ولم تستطع أوربا أن تسفيد من هذين التراثين إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة عن العربية واليونانية . ولكن التراث اليونهاني لم يلق عناية في غرب أوروبا في العصور المظلمة في حين وجد التقدير الكافي والعناية الفائقة في الشرق، حيث أظهر العرب اهتماماً كبير أو رعاية فائقة للثقافات والعلوم والمتنوعة التي وجدوها في غرب أسيا. وامتازت الحضارة الإسلامية بحركة النقل من الفارسية والسريانية واليونانية والهندية والصينية إلى العربية.

وكان بنو أمية علي قسط كاف من الحكمة وبعد النظر جعلهم يتركون المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة في الأسكندرية وبيروت وحران ونصيبين وجنديسابور، فاحتفظت هذه المدارس بامهات الكتب في الفلسفة والعلوم، ومعظمها في ترجمته السريانية. وسرعان ما استهوت هذه الكتب المسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية، ولم يلبث أن قام بترجمتها إلى العربية جماعة من المسلمين فضلاً عن اليهود والنساطرة المسيحيين[١].

(١) فيليب حتى، تاريخ الإسلام، جـ٢، ص ٣٨٠، ٤٤٤

وكانت طريقة السريان أن ينقلوا الكتاب اليوناني إلى لغتهم السريانية، ثم يترجموه بعد ذلك من السريانية إلى العربية. وهكذا أصبح السريان أعظم حلقة للاتصال بين الثقافة الهللنينة والإسلام.

واستمرت الحركة العلمية وحركة الترجمة إلي العربية في العصر العباسي، عندما ربط المسلمون بين تراث اليونان وعلوم الفرس والهنود والصينيين، مما جعل اللغة العربية أداة العلم والمعرفة التي يعتز عن أقصى ما بلغته الحضارة البشرية في العصور الوسطى من سمو ورفعة وقد تمكن العرب من ترجمة كتب أرسطو وأفلاطون الفلسفية وجالينوس الطبية، علاوة على مجموعة من الكتب الفارسية والهندية، وهكذا تمكن طلاب المعرفة من العرب أن يهضموا ما أنتجه اليونان في سنوات طويلة.

وهكذا لم يعد أمام الغرب الأوروبي سوى الترجمة من العربية إلى اللاتينية.

وعلاوة على ذلك، وضع علماء المسلمين شروحاً لفلسفة أرسطوا كما فعل ابن رشد، واهتم بها علماء الغرب(١).

أما أهم مراكز الترجمة عن العربية إلى اللاتينية ، فكانت مركز بين : الأندلس وصقلية. والواقع أن الأندلس كان المركز الرئيسي للترجمة من العربية إلى اللاتينينة، فاتجه إليه كثر من أعلام النهضة الأوربية في القرن

(٢) نفس المرجع

الثاني عشر يطلبون الارتواء من فيض الحضارة الإسلامية في مختلف العلوم والآداب. ومن هؤلاء الذين قصدوا أسبانيا في القرن الثاني عشر أديللارد الإنجليزي وهرمان من ألمانيا وجيرارد من كريمونا بإيطاليا. هذا عدا أهل أسبانيا من المستعديين واليهود الذين اشتغلوا انتقل المعارف العربية وترجمتها مثل بطرس الفونس وحنا الأشبيلي وإبراهيم بن عزار وغيرهم.

وقد نشطت حركة الترجمة عن العربية في برشلونة وليون وطليطلة والتي أسس رئيس أساقفتها مكتباً كبيراً للترجمة من العربية إلى اللاتينية، وتمت ترجمة كثير من أمهات المراجع العربية إلى اللاتينية. وقام روبرت الشستري بترجمة القرآن لأول مرة إلى اللاتينية، كما ترجم كتاب الخوارزمي في الرياضيات، فضلاً عن بعض المؤلفات العربية الأخرى في الكيمياء والفلك. كما قام جيرارد الكريموتاوي بترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في طليطلة في كل علم وفن وترجم أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً، تناولت مختلف ألوان المعرفة، وبخاصة الرياضيات والطبيعية والكيمياء والطب[1].

ولاريب أن العرب بتسامحهم العظيم مع الأجانب وغير المسلمين أتاحوا لهذه العناصر فرصة طيبة للتتلمذ عليهم والإفادة منهم، حتي قال أحد

(١) جوستاف جرونيبادم ، حضارة الإسلام، ص ٤٣٢

الكتاب الأوربيين إن الحضارة الإسلامية نمت بسبب تسامحها إزاء العناصر الأجنبية.

أما صقلية فقد أسهمت هي الأخرى بنصيب مباشر في حركة الترجمة عن العربية . وساعد على قيام صقلية بهذا الدور موقعه المتوسط بين أوربا وأفريقيا، فضلا عن دخولها تحت حكم المسلمين منذ ٨٢٧م إلى ١٠٩١م

ثم احتفاظها بنسبة كبيرة من سكانها المسلمين وثقافتها العربية في عصر النورمان الذي خلفوا العرب في حكم الجزيرة وقد ترجم في صقلية كثير من الكتب العربية، ففي سنة ١١٥٠٠ ترجم ايوجينوس البالرمي كتاب بطليموس، وفي سنة ١١٦٢ ترجمت عن العربية كتابات أخرى في الفلك والرياضيات. واشتهر من المترجمين في القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودي وهو من أصل صقلي وطلب لعلم في سالرنو عاصمة صقلية وترجم العديد من كتب العرب إلى اللاتينية[1].

٥ ـ امتداد الدولة العثمانية في شرق أوروبا

كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية تصل بقواتها إلى الأراضي الأوروبية، وقامت الدولة بدورها في نشر الإسلام في أصقاع شتى من الأقاليم الأوروبية واحتفظ العثمانيون بروحهم الإسلامية فكان ولاؤهم إلى الدين الإسلامي أولاً، ثم إلى السلطان ثانياً، ثم إلى الدولة ثالثاً فالإسلام

(١) نفس المرجع ، ص ٤٣٩

عند العثمانيين دين محاربين مجاهدين في سبيل نشر الدين الإسلامي في القارة الأوروبية. وازدادت هذه الروح الحربية تأججا في نفوس العثمانيين بعدما واجهوا تكتلات صليبية واسعة النطاق ضمت العديد من دول أوروبا وكانت البابوية في روما تدعم وتؤيد هذه التكتلات بل تنادي بالإنضمام إليها. وكان الحركة الصليبية التي شهدها الشرق الإسلامي في الماضي قد انتقلت ميادينها إلى أوروبا فالصليبيون في أوربا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة وقفت في وجه الصليبية الأوروبية، فكان النصر حليف العثمانيين.

وحولت الدولة العثمانية دار الحرب إلى دار الإسلام، وأسهم الجميع في غرس بذور الإسلام وحضارة الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما ساعد على نشر الإسلام وحضارة الإسلام في الأقاليم المفتوحة مما سعاد على نشر الإسلام في أوروبا. وبذلك، اقترنت حركة الفتوح الإسلامية في كل من الأناضول وأوربا بنشر الإسلام، وغدت العواصم التي أتخذتها الدولة العثمانية تباعاً وهي قونية، بردسة ، أدرنة، واستانبول مدناً إسلامية عثمانية ومراكز للدراسات الإسلامية والحضارة الإسلامية.

وقد تركت الدولة العثمانية بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية وقد تركت الدولة العثمانية بصماتها قوية واضحة في مجال نشر الدعوة الإسلامية في أوروبا. ولازالت حتى الآن توجد جماعات إسلامية تعيش حتى اليوم في أوروبا ولم تغير دينها بأي حال

من الأحوال رغم الضغوط التي بذلت من الدول الأوربية لتحويلها إلى المسيحية[1].

ومهما يكن من أمر، فإن العثمانيين بذلوا كل ما يستطيعون لتحويل النصارى إلى الإسلام، وكانوا يقيمون الأفراح إذا ما دخل فرد من المسيحيين في الإسلام.

وقد عامل العثمانيون أهل أوروبا المسيحيين معاملة تقوم على التسامح النابعة من روح الإسلام، والأمر الذي جعل الكثيرين من الأغريق يقبلون بتغيير ديانتهم طلباً للتخلص من حكم الفرنجة البيزنطيين الظالم، فيدخلون الإسلام لما فيه من عدل ومساواة وحب لخير البشرية وإصلاح للمفاسد وكان النظام الإداري والقانوني رائعاً، كما انتشر الأمن والنظام في البلاد[2].

---

(١) محمد جميل بينهم، فلسفة التاريخ العثماني، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٢٤ .

(٢) د/ عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ص ١٤ ـ ١٥ .

الحضارة الإسلامية وأثرها في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية

أولاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة السياسية:

وضع الإسلام الأسس العامة للدولة. ولم يتعرض في كثير من الأحوال للتفاصيل وكان من جراء ذلك أن تطورت نظم الحكم والإدارة والتشريع في الدولة الإسلامية حسب الظروف التاريخية ومقتضيات المجتمع وتقاليد الأمم التي دخلها الإسلام،ولكن في إطار أحكام الإسلام ومبادئه الأساسية، ومن ثم حظيت الحضارة الإسلامية بنظم ووظائف ومرسيم تطورت إلى درجة رفيعة من الدقة والتنسيق، ومن أهم هذه النظم وأكثرها شمولاً الخلافة والإمارة والوزارة وإدارة الدواوين والقضاء والجيش.

الخلافة

اشترط الفقهاء للخلافة أربعة شروط يجب أن تتوفر في الخليفة هي العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس. وكان يتبع الخليفة مباشرة عدد من الخطط الدينية والوظائف الكبرى: وهي الصلاة والفتيا والقضاء والحسبة. وكانت تجب له طاعة المسلمين وسائر رعيته. وكان للخلافة علامات ثلاث هي: البردة والخاتم والقضيب. أما شارتها فكانت ثلاثاً أيضاً: وهي الخطبة والسكة والطراز.

ولم تكن الخلافة وراثية إلى أن جاء معاوية فجعلها وراثية في أسرته، وذلك حين حاول الخليفة ا لأموي معاوية أن يحصل على البيعة لإبنه

يزيد، وظلت وراثية من ذلك الوقت، غير أن الخليفة كان لابد من أن يبايعه المسلمون[١].

الوزارة

عرفت وظيفة الوزير بصفة غير رسمية عند العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، إذ كان العرب قبل الإسلام يسمون أبا بكر وزير النبي، وكذلك كان شأن عمر مع أبي بكر وشأن علي وعثمان مع عمر. وفي عصر بني أمية تلقب بالوزير زياد بن أبيه في عصر معاوية.

غير أن وظيفة الوزير بدأت تتحدد معالمها في العصر العباسي، إذ صار الخليفة العباسي يستعين في إدارة شؤون الدولة وتصريف أمورها والإشراف على دواوينها وإعداد مكاتباتها وتنظيم أموالها بموظف أطلق عليه لقب وزير. ويبدو أن منصب الوزير في العصر العباسي تطور عن منصب الكاتب في العصر الأموي[٢].

وهناك نوعان من الوزارة هما: وزارة التفويض، ووزارة التنفيذ ويختلف النوعان من حيث السلطات والشروط. فمن حيث السلطات يجوز لوزير التفويض دون وزير التنفيذ مباشرة الحكم والنظر في المظالم وحق تفويض الولاة والانفراد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب والتصرف في أموال بيت المال.

---

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، ص ٣٣.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٠.

ومن حيث الشروط يشترط في وزير التفويض دون وزير التنفيذ: الحرية والإسلام والعلم بالأحكام الشرعية والمعرفة بأمري الحري والخراج. أما فيما عدا ذلك فيستوي النوعان في باقي الحقوق والشروط.

الإمارة

كان نظام الحكم الإسلامي يقتضي أن يلي أمور المسلمين وأل أعلى هو الخليفة له حق الطاعة على الأمة كلها. وكانت البلاد والإسلامية تنقسم إلى أقطار أو ولايات يولي عليها ولاة يستمدون سلطان من الخليفة ويتبعونه. وظل هذا النظام سائداً في الدولة العباسية التي كانت تنقسم إلى عدة ولايات كان يولي على كل منها وال هو الأمير. وقد استخدم لقب الأمير للولاة في جميع الأقطار الإسلامية.

ومهمة الأمير هي النظر في أمور الدين في ولايته ولا سيما الصلاة وإقامتها، والإدارة والسياسة والحكم، والدفاع وإعداد الجيش وقيادته، والحكم والقضاء وتبدبير الأموال. ونييب الأمير من يقوم عنه بأداء هذه الأعمال. وفي حالة تبعية الأمير للخالفة قد ينفرد بالإدارة المالية موظف مستقبل عنه يكون مسئولاً مسئولية مباشرة أمام الخليفة يسمى العامل أو صاحب الخراج.

وعرف الأمير كاسم لوظيفة الوالي في غرب العالم الإسلامي أي في بلاد الأندلس وشمال أفريقيا[1].

(١) د/ حسن إبراهيم حسن، النظم السياسية الإسلامية ، ص ١١٣ .

الكتابة

يطلق لفظ كاتب على كل من يقوم بالكتابة والتحرير. ومهمة الكاتب الكتابة بأشكالها المختلفة من انشائية وحسابية ومالية وغير ذلك. وقد اتخذ النبي ﷺ كتاباً يكتبون له القرآن والوثائق المختلفة كالمكاتبات التي كان يرسلها إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام والعهود واللمعاهدات. ومنذ ذلك الوقت صار للخلفاء كتاب من وذي العلم والمعرفة الملمين بالكتابة. وفي عهد عمر عين لكل ولاية إسلامية كاتب. وكانت مهمة الكاتب تحرير الرسائل والأوامر، ولما انشئت الدواوين اتسعت أعماله فشملت حساب الديوان وأسماء الجند وأعطياتهم.

وقد وجد في عصر الخلفاء الراشدين وصدر نبني أمية ثلاثة أنواع من الكتبة:

كتبة الرسائل، وكتبة ديوان الجيش، وكتبة المال والجبايات وزاد أنواع الكُتَّاب إلى خمسة ظلت موجودة في العصر العباسي وهم: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج وكات الجند وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي.

وكان أعلاهم كاتب الرسائل.

واحتل الكُتَّاب مكانة رفيعة في العصر الأموي حتى سُمِيَّ بلقب مشير، وزادت مكانة الكاتب في العصر العباسي حتى لقب بالوزير.

(١) د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامي ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

وكان الكُتَّاب في الولايات يسيرون على نهج كُتَّاب الخلافة الإسلامية. وكان الكتاب ينقسمون في الولايات إلى قسمين كتاب الرسائل وكتاب الخراج.

الحجابة

عرفت الحجابة في مكة قبل الإسلام وكانت تعني حراسة الكعبة وحفظ مفتاحها.

وعرفت الحجابة في الإسلام، إذ أصبح «الحاجب» يطلق على من يقوم بين الوالي وبين الناس ويطلب لهم الإذن لمقابلته، وينظم الاتصال له، ولذلك كان من الطبيعي أن يكون على صلة وثيقة به. واستمرت وظيفة الحجابة في الدولة العباسية وزادت أهميتها وسلطتها تدريجياً.

وعرف الحاجب في غرب العالم الإسلامي حيث تطور مدلوله واختصاصاته ففي أول الأمر كان الحاجب في الدولة الأموية بالأندلس يقوم بالوساطة بين الخليفة ووزارته وأخذت سلطة الحاجب في الاتساع حتى أصبح أرفع شأناً صار يسمي بذي الوزارتين وصار يشرف على الشؤن المدنية والعسكرية، ثم زاد نفوذه حتى استبد بالأمر وسيطر على الخليفة، وبذلك صارت إليه أمور الدولة في أواخر الخلافة الأموية بالأندلس(١).

(١) د/جمال سرور ، يام الدولة العربي، ص ٣٩-٤٢ .

الدواوين

كانت الإدارة الحكومية في الدولة الإسلامية موزعة على عدد من الدواوين، وقد عرف الديوان في الدولة الإسلامية بمعنى السجل وصارت المكاتبات تكتب باللغة العربية في عهد عبد الملك بن مروان الذي أمر بتعريب الدواوين. ومن ثم أطلق على الديوان الإدارة الحكومية التي تقوم بجباية الخراج والضرائب وكان مكان الديوان في أول الأمر في المسجد ثم نقل إلى دار الأمارة أودار الوزير أو القصر وقد تطورت الدواوين وازداد عددها في الدولة الإسلامية وتنوعت نظراً لما وصلت إليه أنظمة الدولة من تخصص وتنظيم. وكان لهذه الدواوين رؤساء يسمون أصحاب الدواوين. وكان بكل ديوان كتاب وخازن وبوابون وأعوان. وكان يمد بالصحف والأوراق (القراطيس). ومن أشهر الدواوين دويان الرسائل وديوان بيت المال وديوان الجند وديوان البريد وغير ذلك.

فقد لعب ديوان الرسائل دوراً مهماً في إداراة الدولة الإسلامية، ويرجعت أصل هذه الديوان إلى وظيفة الكاتب الذي كان يقوم بكتابة الرسائل للولاة. وفي العصر العباسي زادت المكاتبات الإدارية زيادة دعت إلي تنظيمها وإسناد مهمتها إلى ديوان الرسائل، وكانت مهمته إنشاء صيغ الكتابات الرسمية وتحريرها. وكان رئيسه يلقب بصاحب أو رئيس

(١) د/حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٥٢ ـ ٧٢.

ديوان الإنشاء. وعلى نمط ديوان الرسائل في عاصمة الخلافة الإسلامية قامت في الولايات المختلفة دواوين مماثلة تنظم المكاتبات الإدارية بين الولاية وغيرها من الولايات والبلاد الأجنبية.

أما ديوان البريد فيقوم بنقل الأخبار إلى الوالي وإخطاراه بما يجد في ولايته، وكان من عمل البريد في العصر العباسي نقل الأخبار السرية، وكان يسمى القائم بنقل الأخبار بريدي، ويقال للمشرف على البريد أو صاحب البريد وغير ذلك من المسميات(١).

القضاء

اعتبر القضاء في الوظائف الإسلامية من الوظائف الدينية المتصلة مباشرة برأس الدولة،وربما كان الاسم الرسمي للقاضي هو الحاكم. وكانت مهمة القاضي هي الفصل بين المتنازعين حسب الشريعة الإسلامية. وكان يقوم بها في أول الإسلام النبي ﷺ، ولما زاد عدد من الصحابة. وفي خلافة عمر وضع للقضاء نظام محكم فعين القضاة للمدن في الدولة الإسلامية، وسنت لهم النظم والقواعد التي يجب عليهم اتباعها وكان الخلفاء الراشدون يختارون القضاة من العلماء المسلمين بأحكام الشريعة الإسلامية والمعروفين بتقوى الله وتحري العدل وغير ذلك من الصفات الحميدة. وزادت صلاحيات القاضي بعد ذلك بحيث أصبح مسئولاً عن

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ٧٠ ـ ٧٢

الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال وغير ذلك من الوظائف الأخرى.

وظهرت في العصر العباسي وظيفة قاضي القضاة، وهو يطلق على كبير القضاة وكان مقره عاصمة الخلافة، وهو يقوم بتعيين القضاة في سائر الولايات وله حق الإشراف عليهم ومراقبتهم(١).

الشرطة

والشرطة هم الجنود المكلفون بالمحافظة على الأمن الداخلي، بمنع وقوع الجرائم والقبض على الجناة ، وعمل التحريات اللازمة، وتنفيذ العقوبة التي يحكم بها القضاة، وإقامة الحدود. وكان رئيس الشرطة يسمى صاحب الشرطة.

وظهرت وظيفة صاحب الشرطة في عهد علي بن أبي طالب، وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم وذوي العصبية.

ووضحت مهمة الشرطة في العصر الأموي وزاد تنظيمها وتنسيقها في العصر العباسي، إذ صار لكل مدينة شرطة خاصة تخضع لرئيس هو صاحب شرطة هذه المدينة، وكان صاحب الشرطة يتخذ له نائباً ومساعدين يسمون الأعوان. وكان الشرطة يتخذون أعلاماً خاصة ويلبسون زياً خاصاً ويحملون مطارد وتروساً تحمل كتابات باسم صاحب الشرطة، ويحملون في الليل الفوانيس ويصطحبون كلاب الحراسة. وكان

(١) نفس المرجع ، ص ٦٥ .

صاحب الشرطة يولي أحياناً الإمارة، كما كان الأمير يولي الشرطة في بعض الأحيان بعد عزله من الإمارة.

وكان صاحب الشرطة يسهم في عصر الولاة في أعمال الحسبة والإشراف على ديوان الأوقاف وتنظيم مرتبات الجند[١].

الحسبة

نشأت وظيفة الحسبة في عهد المهدي نظر الاهتمام العباسيين بجعل الشريعة الإسلامية أساساً لحكمهم. وكان المحتسب يختار من بين رجال الدين والقلم الملمين بأحكام الشريعة والأشداء في الحق وذوي الثقة والأمانة. وكانت اختصاصات المحتسب تشمل تأديه العبادات والأمر بالعروف والنهي عن المنكر ووضع ما يتعارض مع القيم الإسلامية، والمحافظة على الأخلاق العامة، والمحافظة كذلك على صحة المواطنين وسلامتهم، وضع ما يعكر الأمن.

وكان من عمل المحتسب النظر في الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل، ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار ومراقبة التجار وأصحاب الحرف حتى يمنع الغش و التدليس[٢].

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٣ .

النظام الحربي

كان جميع المسلمين القادرين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين أفراداً في الجيش فكان إذا دعى للجهاد خرج كل قادر على حمل السلاح،وكان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون يولون لكل حملة أميرا وربما جعل للأمير نائب. وكان يغرض لجميع المسلمين عطاءات.وكان عمر بن الخطاب أول من سجل أسماءى الجند وحدد أعطياتهم، وأطلق على هذا الديوان اسم ديوان الجند . وظل العنصر الغالب في الجند من العرب. وتكون في العصر الأموي جيش أشبه بالجيش النظامي واستمر الجند يحصلون على أعطيات في العصر الأموي إلى أن تحدد لهم مرتبات وأجور في العصر العباسي إذ بلغ راتب الجندي في العصر العباسي ٩٦٠ درهما في السنة علاوة على الطعام والمخصصات الأخرى.

وكان للأمويين أسطول بحري قوي ألقى الرعب في قلوب أعدائهم من البيزنطيين. وكان قائد الجيش يسمى أميراً[١].

(١) د/ فهمي شتا ، ظهخور القوة البحرية الإسلامية ، مجلة الدارة ، العدد الأول.

الدبلوماسية والسفارات في الإسلام

كانت الدبلوماسية في الجغاهلية مقصورة على إيجاد العلاقات الودية بين القبائل المجاورة ولغرض في التجارة، وكانت تتم بالأسفار والانتقال والقوافل والتجارة وبالإجتماع في الأسواق ومواسم الحج، وأشهر العلاقات وهوسير الوفود إلى ملوك فارس والحيرة وغسان وحمير.

ولما جاء الإسلام ، تطورت الدبلوماسية الإسلامية وتطورت أهدافها وأساليبها،واتخذها النبي ﷺ قبل الهجرة من مكة إلى المدينة أسلوباً لنشر الدعوة الإسلامية ، وتتجلى هذه الدبلوماسية فيما أرسله النبي ﷺ وما أوفده من بعوث إلى القبائل العربية، وإلى ملوك الدول المجاورة للدعوة إلى الإسلام ويعد عصر الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبي ﷺ، إذا ظلت الدبلوماسية وسيلة للدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته، وعقد المعاهدات بين ممثلي الأقطار والدن الداخلة تحت لواء حكم الخلفاء الراشدين . وكذلك الحال في عصر الدولة الأموية، كانت الدبلوماسية لغرض الدخول في الدين الإسلامي أو لتحقيق سلام أو عقد هدنة أو دفع جزية أما في العصر العباسي فأصبحت الدبلوماسية وسيلة لتبادل العلاقات الودية بين الدول وغيرها، وتعددت أغراض السفارات حتى أصبحت وسيلة لنقدية الصلات التجارية والثقافية وعقد المعاهدات، وحتى تعددت السفارات بين الدول الإسلامية والدولة البيزنطية ودولة الفرنجة والهند والصين.

وأنشأ عبد الرحمن الداخل أول خلفاء المسلمين في الأندلس علاقات دبلوماسية مع دول الفرنجة تأكيداً للروابط الثقافية والسياسية والاجتماعية علاوة على حسن الجوار(١).

وكان السفير يمثل الخليفة ويتكلم باسمه ويفاوض عنه، ويبرم المعاهدات بدلاً منه، كان اسفراء يختارون على أقصى غاية في الدقة بحيث يكون السفير ذكياً ومتصفاً بصافا خلفية وعقلية وأإن يكون واسع الثقافة ذا رأي نافذ وحصيف العقل يجعله يستنبط غوامض الأمور ويستشف سرائر القلوب ، ويجب أنيكون فصيحاً ليعجب السامع بحديث وبسحره بحلاوة لسانه ، ثم ليكون كلامه ممتعاً أنيقاً يوصل إلى الهدف المطلوب.

وقد أدرك المسلمون منذ القدم شرف السفارة وأقدار السفراء، فاختاروهم من الشخصيات المبرزة ذات المكانة الرفيعة في العلم والأدب والرجاحة والحصافة وسرعة البديهة وحسن التصرف، ليكونوا أقدر على تمثيل الخلفاء والأمراء والرؤساء واختير كثير من القضاة والفقهاء والعلماء لأعمال السفارات. كما انخب من موظفي الدولة كالوزاراء والكتاب والأطباء من يصلح لمهام الوفادة.

وكان الخلفاء يرشحون السفراء ويزودونهم بكُتَّاب من أجل مهمتهم.

(١) د/ عز الدين فراج ، المرجع السابق ص ١٠٢ ـ ١٠٥ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ .

وقد امتد نشاط السفراء العرب إلى غربي أوروبا حين بعث شارلمان امبراطور الدولة الرومانية بسفارة إلى هارون الرشيد يوصيه برعياة حجاج بيت المقدس.

وفي الأندلس في عهد عبد الرحمن النصار تقرب إليه ملوك الأسبان والافرنج بالطعة والولاء، وأرسلوا إليه رسولهم وهداياهم من روما والقسطنطينية للمهادنة والسلم، وحضر إلى بابه بعثات من ملوك الأسبان لبلاده، فقبلوا يد الخليفة والتمسوا رضاءه وساروا في موكبه فكانت هذه البعثات الدبلوماسية من ملوك وأمراء أسبانيا سبباً في استتباب السلام من مدة من الزمن.

وكان السفير يزود بجواز سفر أو ورقة طريق، فالمسلمون هم أول من وضع الباسبورت (جواز سفر). ولو تأملنا ما يتبع الآن في الدبلوماسية وتبادل السفراء والبعثات لم يخرج كثيراً عما اتبعه الخلفاء في أيام سلطانهم ومجدهم. وبذلك أصبح كثيراً مما اتبعه المسلمون موضوع تنفيذ الآن[1].

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ٢٣٧ .

ثانياً: إثر الحضارة الإسلامية في الحياة الاجتماعية

يتألف المجتمع الإسلامي من طبقات يقوم على رأسها الخليفة ثم زفراد أسرته وعلية كبار الموظفين وبهذا يتكون المجتمع من الطبقات الآتية.

١ ـ الطبقة الحاكمة وتشمل الخليفة وكبار المظوفين وأتباعه.

٢ ـ الطبقة العليا وتشمل العلماء ورجال الدين والتجار والصناع.

٣ ـ الطبقة الدنيا وتشمل الفلاحين والرعاة والحمالين والشفاعين والرقيق

٤ ـ الطوائف الأخرى: النصارى واليهود والصائبة.

استطاع الإسلام أن يوجد بين الأجناس المخلفة ومزجها معاً في بوتقة الإسلام والعروبة[١].

واهتم الإسلام بالمرأة وكرمها وكان لها نصيب في المجتمع الإسلامي مثل زبيدة زوجة الرشيد التي شاركت الخليفة مجده وعظمته وكذلك عليه والعباسية ابنتا المهدي وكانت عليه قدوة النساء في اتخاذ العصابة المطرزة بالجوهر، وكذلك العباسة كانت بطلة نكبة البرامكة. وهناك شاعرات ومغنيات مثل محبوبة جارية جعفر المتوكل وكانت بارعة في الفنون والأدب.

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ١١٢ ـ ١١٤.

ولقد نادى الإسلام بحق المرأة في ممارسة حقوقها المدينة والعمل في التجارة والصناعة.

كما أن الإسلام نادى بالمساواة بين البشر وعلى حرية الرأي والعقيدة والتسامح والعدل والخير وحسن المعاملة والرحمة والإحسان[1].

وقد انتقلت كثير من العادات الكريمة كالأخلاق والتسامح والفروسية والشجاعة والمروءة إلى أوروبا.

ثالثاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الثقافية

اهتم الإسلام بالعلم وحث على طلبه وكرم أهله، ومما ساعد العلماء العرب على التفوق العلمي عوامل:

١ ـ حث الدين الإسلامي على طلب العلم كما جاء في القرآن والسنة.

٢ ـ حرية الرأية العلمي فلم يتعرض عالم لمحنة بسبب رأيه العلمي .

٣ ـ رعاية الخلفاء والحكام والولاة للعلم واتفاقهم بسخاء في هذا المجال.

٤ ـ استعلاء العلماء كلهم وزهدهم عن الترف والسلطان.

٥ ـ الاستعداد الذهني مع الصبر والمثابرة حتى أن أعمال العالم منهم يعد بالعشرات والمئات في معظم الأحيان.

(١) أدم متر، الحضارة الإسلامية، جـ ١ ، ص ٥٨ ـ ٦٣ .

٦ ـ الظروف المهيأة لسطوع الحضارة العلمية في العصر الإسلامي حيث أتاحت للأمة العربية الإسلامية أن تقدم نهضة الحضارة الأوربية.

ومهما يكن من أ مر، فقد كان للعربي عقيدة وفلسفة، وكان للعرب نظام حكم أشاع روح العدل والانصاف التسامح فتعايش الناس من ذوي العقائد المختلفة والأجناس يسودهم الأمن والسلام فتجاور المسجد والكنيسة في كل قطر بل في كل مدينة، وظل هذا الوضع زمناً طويلا بسبب روح الأخاء والتسامح التي سادت بين الجميع فقد تربى المسلمون على هذا التعايش والامتزاج. وفتحوا صدورهم للنصارى واليهود الذين درسوا في الجامعات الإسلامية، وحملوا كل أثار العرب وعلومهم إلى أوروبا ومن أهم مظاهر الحياة الثقافية في العالم الإسلامي[١]:

١ ـ كانت المساجد مكاناً للعلم ثم شهدت قصور الخلفاء والأمراء ومنازل العلماء والمكتبات حلقات العلم والتدريس.

٢ ـ كانت الصالونات الأدبية والعلمية مكانا لاستقبال الراغبين في العلم، وهي تشبه الجلسات العلمية. وقد ازدهرت المجالس العلمية في شتى العصور.

٣ ـ خصص الخلفاء وقصورهم أماكن للعلم ورعوا العلم، وأقاموا الدور والمساكن والمقاصير والتدريس وإقامة الحلقات العلمية والمناظرات.

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٩٦ ـ ٩٩ .

٤ ـ يعتبر عصر المأمون من أرقى عصور الدولة العباسية في تاريخ النهضة العلمية بالعالم الإسلامي، إذ كان الخليفة نفسه عالماً من أساطين العلم والعلماء. واختار أصحابه ورجال الدولة من الصفوة والأفذاذ في الشرق والغرب.

٥ ـ انتقلت مجالس العلم وصالونات الأدب والاجتماعات العلمية من قصور الخلفاء والمساجد إلى المدارس، فقد ازداد الإقبال على هذه الحلقات، مما تعذر عقدها في المساجد والأماكن الأخرى.

٦ ـ انشئت المدارس في بادئ الأمر لتعليم العلوم الدينية ، ثم عرفت العلوم الدنيوية كالطب وغيره. وكان بالمدرسة صالة كبيرة وقاعة محاضرات، ومساكن للأساتذة والطلاب، وتلحق بها المرافق العامة. ومن أهم المدارس المدرسة النظامية نسبة إلى نظام الملك في العراق وغيرها من المدن الأخرى.

٧ ـ اهتم المسلمون بإنشاء المكتبات العامة ومن أهمها بيت الحكمة في بغداد، ودار الحكمة في القاهرة. وكانت هذه المكتبات تؤدي ما تؤديه معاهد العلم والجامعات الجمعيات العلمية في الوقت الحاضر(١).

(١) د/ عبد الحليم متصر، المرجع السابق ، ص ٤٩ ـ ٦٢ .

٨ ـ اهتم الخلفاء المسلمون بإرسال البعثات العلمية منذ صرد الإسلام، حين تفوق علماء الصحابة في الأقطار، وأقام كل منهم مركزاً علمياً في البلد الذي حل فيه، فحلقة في اليمن، وثانية في الكوفة، وثالثة في مصر، ورابعة في البصرة وخامسة في المدينة وهكذا، وأصبح لكل مدرسة طابعها المميز . فكان الناس يستمعون إلى حلقات هؤلاء الأساتذة للانتفاع بعلمهم.

٩ ـ وإلى جانب دور المكتبات انتشرت محال الوراق كمراكز للعلم والثقافة إذ كانت تعمل في نسخ الكتب وتجويد الخط وبالإضافة إلى أهميتها كمراكز أدبية، وكان في بغداد في عام ٢٧٨هـ / ٨٩١م أكثر من مائة من محال الوراقة.

١٠ ـ كان للأجناس المختلفة في الدولة الإسلامية دورها في الحركة الثقافية، وظهر فضل العرب بشكل واضح في الشعر، وظلت الثقافة افي العالم الإسلامي ذات طابع عربي وذات صلة وثيقة وبالحياة والتقاليد العربية. وكان الفرس من العناصر البارزة في الحركة الثقافية، كما كان لأهل الذمة من النصارى واليهود والصائبة دورهم في حركة الترجمة التي كان لها أثرها في تطوير الثقافة الإسلامية(١).

(١) د/ حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٣ ، ص ١٠٥٣ .

١١ـ اهتم المسلمون بترجمة الكتب الفارسية والسريانية واليونانية إلى اللغة العربية وكان من أوائل المترجمين أبو يحيى البسطريق الذي ترجم عن اليونانية وحسنين بن اسحق شيخ المترجمين وهو من نساطرة العرب، وأعلم أهل عصره في الطب. ومنهم أيضاً بوحنا بن ماسويه وهو معلم حسنين بن اسحق ثم جرت بعد ذلك حركة الترجة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية، وكان لهذه الحركة أكبر الأثر في بعث روح النهضة في أوروبا.

١٢ ـ صار للمدرسين دور سياسي إلى جانب وظيفتهم التعليمية، فلم يقتصر المدرسون على أن يكونوا مجرد معلمين فحسب، بل صارت لهم أهميتهم في مجال السياسة الداخلية والخارجية، كما كان يختار منهم رجال الدولة والإدارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والسفراء وغيرهم كما كانوا بمثابة مستشارين للولاة والأمراء. وازداد نفوذ المدرسين بفضل سلطانهم الأدبي والروحي فعظمت منزلتهم بين الناس، ومن ثم استطاعوا أن يوجهوا الرأي العام، فعنوا بتأسيس المدارس وتعريب المدرسين حتى يضمنوا كسب الرأي العام واستقرار الأمور، وانتصار المذهب السني وبالتالي سلطانهم السياسي(١).

(١) نفس المرجع، ص ١٠٥٣ ـ ١٠٥٥.

١٣ ـ أسس السلطان نظام الملك سلطان الدولة السلجوقية مدارس في أنحاء الدولةن في بغداد والبصرة وأصفهان والموصل وغيرها، وكانت هذه المدراس تسمى بالنظامية نسبة إِليه. وانتشرت المدارس في خراسان والعراق وأسيا الصغرى على نمط المدرسة النظامية. وتولى نور الدين محمود إِنشاء المدارس في الشام والجزيرة فأسس المدرسة النورية في دمشق وتأسست مدارس أخرى في حلب وحماة وبعلبك وحمص والبصرة وكان يفد إِليها العلماء من بغداد ونيسابور وقرطبة وغرناطة ومراكش.

وفي عصر الفاطميين أسس صلاح الدين المدرسة الناصرية (الشريفية) ثم توسع صلاح الدين في إِنشاء المدارس فأنشأ المدرسة الصلاحية ومدارس أخرى في مصر وأسس في سوريا مدارس كثيرة.

غي أنحركة بناء المدارس قد استمرت حتى أواخر الخلافة العباسية. وأشهر هذه المدارس المدرسة المستنصرية التي أنشئت في بغداد لتدريس المذاهب الأربعة. وهي أول مدرسة جمعت فيها المذاهب الأربعة وكان بها الجامع.

ثم ازدهرت المدارس في عصر المماليك ومن بعدهم العثمانيين.

ثم ازدهرت المدارس في غرب العالم الإسلامي، فقد انشئت المدارس في قرطبة وأشبيلية وطليطلة وغرناطة وحلقا وغيرها. ومن أهم المدرسين القاضي عياض. واهتم بنومرين ببناء المدارس في بلاد المغرب وخاصة في مدينة فارس ومن أشهرها مدرسة الصهريج ومدرسة العطارين وغيرها وفي شرق العلام الإسلامي سار المعقول على نهج السلاجقة والعباسيين فأنشأوا المدارس في بلادهم(١).

وإذا كانت المدارس هي معاهد الدراسات التخصصية والعليا، فقد عرف العالم الإسلامي معاهد تعليم الأطفال والصغار من الذكور والإناث وهي المعروفة بالكتاتيب.

١٤ ـ كما آمن علما ء المسلمين بفكرة التخصص، فقال ابن قتيبة ، من أراد أنيكون علاماً فليطلب فنا واحداً كذلك امتدح العلماء التركيز ونادوا بالابتعاد عن المقدمات والاستطراد. ثم أن القرآن نص أولئك على أن الطبيعة مصدر هام من مصادر العلم، وذلك فتح الإسلام الباب على مصراعيه للبحث في هذا الميدان بحثاً تجريبياً واقعياً(٢) وأدى ذلك إلى ظهور المذهب التجريبي. وعنه أخذ الأوربيون ونقلوه عن العرب من أجل الوصول إلى الحقيقة.

---

(١) د/ حسن الباشا، المرجع السابق ، ص ١١٠ ـ ١١٢ .

(٢) عباس العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .(١) د/ عز الدين فراج

رابعاً: أثر الحضارة الإسلامية في الحياة الاقتصادية.

١ ـ الزراعة:

حظيت الزراعة بكثيرمن العناية فمن المعروف أن الزراعة تزدهر في ظل ا لحكومات القوية التي تعمل على توفير مياة الري واستصلاح الأرضاي وتيسير نقل المحاصيل.

وقد عملت الدولة على إصلاح الأراضي وحفر القنوات والترع القديمة ونقل المحاصيل الزراعية وتبادلها بين الولايات الدولة.

واشتهرت الدولة الإسلامية بزراعة الحبوب والفواكه والقطن والأزهار والخضروات والنباتات والحشائش (كمصدر للأدوية والعقاقير). وأدخل العرب تحسينات جمة على طرق الحرث والغرس والري، وهذا ما جعل الأندلس في عهدهم جنة الدنيا[١]. وقد نقل الأوربيون الكثير من الزراعات وطرق الري إلى أوروبا.

٢ ـ الصناعات:

مارس المسلمون كثيراً من الصناعات ومن أهم هذه الصناعات العمارة، فقد ترك المسملون أثار كثيرة من العمائر الإسلامية من مساجد ومدارس

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق ص ٥٦ ـ ٦٠.

وقلاع وحصون وقصور وأسواق وأسوار مدن وأربطة ومساكن وغيرها. كما شقوا الطرق وعبدوها وشقوا القنوات وشيدوا القناطر ،وتتميز العمارة الإسلامية بميزات خاصة كالمآذن والقباب والعقود والأعمدة والمحاريب ومن أهم العناصر المعمارية الإسلامية المقرنصات وهي أشكال زخرفية على شكل محاريب صغيرة ويتم زخرفتها بالخشب والمعدن.

واهتم المسلمون كذلك بصناعة النسيج التي ارتقت وتقدمت في العصر العباسي ووجدت أنوال للنسيج تشرف عليها الدولة وكان يطلق عليها اسم الطراز ومن أهم مركز صناعة النسيج في مصر. دمياط والأسكندرية والفيوم. وكان القطن والكتانت ينسجان في مراكز الصناعة المصرية، كما كانت مراكز النسيج في العراق متقدمة في كذلك في إيران وإسبانيا(١).

ومن الصناعات الأخرى صناعة الزجاج وصناعة الفخار والخزف، وازدهرت صناعة المعادن في العلام الإسلامي ازدهار كبيراً، واشتهخرت صناعة السيوف والرماح والخناجر والدروع والتروس وغيرها. وكذلك صناعة الحلي بمختلف أشكالها. و غني المسلمون بضرب النقود وسكها من الذهب والفضة والنحاس في العملة الرئيسية الدينار من الذهب والدرهم من الفضة(٢).

(١) د/ حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٦٢-١٦٧ .

(٢) نفس المرجع.

واشتهر المسلمون بصناعة الخشب المطعم بالعاج وصناعة الزجاج والبلور الصخري كالمصابيح وصناعة الجلود وصناعة السجاد وصناعة الورق وصناعة الحرير وغيرها:

٣ ـ التجارة والمواصلات:

انتعشت التجارة في الدولة الإسلامية، فقد حدث ازدياد مضطرد في التجارة في الدولة العباسية سواء في التجارة الخارجية أو الداخلية.

وفي مجال التجارة الخارجية كان للعالم الإسلامي علاقات تجارية مع غرب أوروبا وشمالها، ومع الشرق الأقصى، ومع القارة الأفريقية. وكانت العلاقات التجارية مع غرب أوروبا تقوم على تصدير الرقيق إلى العالم الإسلامي، وكان الرقيق تجلب إلى الموانئ الفرنسية ثم يحمل منها إلى العالم الإسلامي.

وقد ظل التبادل التجاري مستمراً بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية ومع شمال أوروبا، حيث كانت الدول الأسكندنافية تصدر الفراء للعالم الإسلامي، وكان العالم الإسلامي يستورد الحرير من الصين والفيلة والتوابل والأخشاب من الهند، كما كانت القارة الإفريقية تصدر الى العالم الإسلامي الذهب والأبنوس والعاج.

أما التجارة الداخلية فكانت تعتمد في انتقالها إما على الطرق البرية أو الطرق المائية من أنهار وقنوات وبحار. ويلاحظ أن العرب اهتموا بالطرق

كوسيلة للمواصلات ونقل المتاجر وسير القوافل، فعنو بتزويدها بالقصور أو منازل الاستراحة، وحفروا الآبار والعيون لإمداد المسافرين بالمياة اللازمة، ولاشك أن العناية بالطرق تعتبر من الإسلام من الواجبات الدينية لاتخدامها في الحج إلى بيت الله وزيارة المسجد النبوي الشريف.

٤ ـ الفنون الإسلامية:(١)

نشأت الفنون الإسلامية حول منحورين هما: المسجد والمصحف، فاهتم المسلون ببناء المساجد من الناحية المعمارية والزخرفية والعناية بأثاث المسجد والرغبة في تجميله. كما اهتم المسلمون أيضاً بالمصحف وتكونت حوله أنواع أخرى من الفنون الإسلامية، ومنها فنون الخط وتذهيب المصحف وتزويقه وتجليده.

وظل هذا الأساسان عامل توحديد في الفنون الإسلامية التي استوحت روح الإسلام وتعاليمه، وتأثير الفن الإسلامي بالرغبة في تجميل الحاية. فقد بلغ الفن الإسلامي في الزخارف الهندسية مرتبة الإيرانية أي فن آخر.

ووجد في مصر الفن الفاطمي ثم الرطاز الأيوبي ثم الطراز المملوكي، كما وجد في الأندلس فن أندلس (الطراز الأموي الغرب). أما في دمشرق العلام السلامي فقد حل الفن السلجوقي. وقام في إيران الطراز

(١) د/ حسن الباش، المرجع السابق، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

الغولي ثم الطراز الصفوي وقام في الهند طراز هندي إسلامي وفي آسيا الصغرى طراز آخر(١).

ويرجع الفضل في نشأة بعض الفنون الأوربية إلى الفن الإسلامي، مثل الفن القوطي: وكان مجيء الحجاج الأوروبيين إلى فلسطين أثر كبير في تبادل العناصر ا لفنية بين علام الإلامي وأوربا.

ومن أهم الفنون التي ازدهرت في العلام الإسلامي الخط العربي أو الكتابة العربية التي تطور كثيراً بعد ظهور الإسلام. وأصبح هناك أشكال كثيرة من الخطوط من أهمها الخط الكوفي وخط النسخ والخط الفارسي ولاخط الهمايوني والثلث والديواني والرقعة(٢).

وهنا جانب آخر الفنون الحسية كان للمسلمين فيه فضل على الغرب الأوروبي ، ونعني به الموسيقى. وقد أثر ا لعرب في الموسيقى الغربية وتطورت بفضل علماء المسلمين في هذا المجال. وقد ظهر أثر العرب في السلم الموسيقى الذي اعترف علماء الموسيقى في الغرب بفضل العرب في هذا المجال وخاصة المدرسة الموسيقية في بغعداد. كما ازدهرت الموسيقى العربية بالأندلس، فوق الطلاب الأوربيون إلى قرطبة حيث ترجموا كتابات العرب في علم الموسيقى إلى اللاتينية، كما عرف الأوربيون كثيراً

(١) د/حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية ، ص ١٣٦ ـ ١٤٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٦ ـ ١٥٩ .

من الألات الموسيقية عن طريق مسلمي أسبانيا، وقد ترك العرب بصماتهم واضحة بوجود عدد من المصطلحات والأسماء الموسيقية التي نقلها الغرب إلى لغاته فلفظ **Guitar** مأخوذ من قيتارة **Ribile** مأخوذ من رباب و **Naker** من النقارة و**Kanoon** مأخوذة من القانون وغيرها(١).

فضل علماء المسلمين على أوروبا

١ ـ جابر بن حيان رائد علم الكيمياء

جابر بن حيان كيميائي المسلمين الأول، وعلم من أعلام المسلمين، لم تكن الكيمياء قبلة علماً على التجربة العلمية، بل كانت نوعاً من الصناعة يتناقلها الناس بلا تجربة أو مشاهدة. ولهذا سمى جبر بن حيان برائد علم الكيمياء، وارتبط اسمه في الشرق الغرب بأول من وضع الكيمياء على أسس علميةم، حتى أن جامعات أوربات في مطلع النهضة الأوبية لا تعتمد على مراجع في علم الكيمياء غير كتب جابر بن حيان(٢).

وقد وضع جابر بن حيان نظاماً علمياً يرى أن يلتزم به كل من يعمل في الكيمياء يقوم على الأسس التالية:

---

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، جـ٣، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) د/ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية، القاهرة دار الفكر العربي، ١٩٨٦، ص ٤٥.

١ ـ تجديد الغرض من التجربة قبل البدء بها.

٢ ـ يجب أن يتفرغ صاحب التجربة لها حتى يعطي التجربة حقها من الوقت والرعاية.

٣ ـ يجب أن يكون المعمل في مكان خاص مناسب.

٤ ـ يجب اختيار الزمن المناسب والفصل الملائم للتجربة.

٥ ـ الصبر أو المثابرة عنصر هام من عناصر النجاح، والفشل مرة أو مرتين ورابعة لا يعنمي اليأس.

٦ ـ لا يتسرع الكيميائي في استنتاج نتائجه.

٧ ـ يجب تجنب ماهو مستحيل أو عقيم.

ويرى جابر بن حيان أنه لانجاح في تجربة أو عمل عملي إلا إذا كان مسبوقاً بالقراءة المتمعنة، ثم تأتي التجربة العملية، أي اقرأ أولاً ثم اقرأ أولا ثم اقرأ وتأمل ثم أعمل[١].

وقد ترك جابر بن حيان مصنفان عديدة في الكيمياء منها كتاب الرحمة» وكتاب التجميع، وكتاب الزئيق الشرقي، وكتاب الاستحمام وكتاب السبعين وكتاب تركيب الكيمياء، وترجمت كتبه الأخيرة إلى اللغة الفرنسية، فما يدل على نفوذه العلمي في أوروبا. والواقع أن

(١) نفس المرجع، ص ٤٦ ـ ٤٧.

كتابات جابر بن حيان تؤلف موسوعة كبيرة في علم الكيمياء، إذ أن جابر بن حيان كان خبيراً في العمليات الكيميائية الشائعة كالأذابة والتبلور والتقطير والترشيح والكليس وغيرها، وقد أدخل الملاحظة الدقيقة والتجارب العلمية والعناية برصد نتائجها. وقد نجح. في تحضير حامض الكبريتيك (زيت الزاج) وحامض النيتريك (ماء الفضة) وماء الذهب والبوتاسي ونترات الفضة (حجر جهنم) والكربونات وغيرها[١].

كما بحث جابر بن حيان في المسوم وألف فيها «كتاب السموم دوفع مضارها». وقد قسم فيه السموم إلى حيوانية ونباتية وحجرية. وكان جابر في كل أبحاثه يعتمد على التجربة والمشاهدة وبناء النتائج على الأسباب. ولاشك في أن نجاح جابر بن حيان في الوصول إلى ما وصل إليه من نتائج إنما كان بفضل تمسكه بقواعد المذهب التجريبي، كما ظهر ذلك في بعض كتبه مثل «رسالة الأقران» وكتابات نهاية الاتقان» وقد ترجم هذان الكتابان إلى اللاتينية واستفاد منهما الأوربيون منذ وقت مبكر[٢].

ويتضح فضل العرب على علم الكيمياء من كثرة الأسماء العربية التي اقتبستها اللغات الأوروبية في ذلك العلم. فالكيمياء أصبحت **Chemestry** بالإنجليزية والكحول **Alcohol** بالإنجليزية والقلويات أصبحت **Alkali**.

(١) د/ سعيد عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة والأوروبية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٣، ص ١٣٨

(٢) عباس العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٣.

وقد وصل العرب بقلم الكيمياء إلى درجة من الرقي مكنتهم من تطبيق النتائج التي توصلوا إليها على الصناعات المختلفة ، وهو ما يعرف اليوم باسم الكيمياء الصناعية، فاستخدم العرب خبرتهم الكيميائية في صبغ الأقمشة ودبغ الجلود وصناعة المعادن، وتوصلوا إلى اتغلال القوى الناجمة عن االنفجار البارود ونجحوا في اختراع الأسلحة النارية[1]. وقد نقل اختراع البارود، مما أدى إلى أحداث ثورة في أساليب الحرب وفنونها، كما ساعدت على إتمام كثير من المشروعات العمرانية كشق الطرق و الممرات بين الجبال وتفتيت الصخور وغيرها.

وهكذا تطور علم الكيمياء على يد علماء العرب المسلمين بعد أن نظروا إلى هذا العلم على أنه العلم الذي يتم به تحويل مخلتف المواد إلى ذهب وفضة وهذا ما دفعهم إلى البحث والتجربة فحللوا كثير من المواد تحليلاً كيميائياً، وميزوا بين القلويات والأحماض، وشرحوا كثير من التفاعلات الكيمياءية وتأثير المواد المختلفة، ومن هنا يمكن القول أن علماء المسلمين هم الذين ابتدعوا الكيمياء وصفها علماً من العلوم ، لأنهم أدخلوا ملاحظة الدقيقة والتجارب العلمية والعناية برصد نتائجها في حين اقتصر اليونانيين على الخبرة الصناعية والفرضيات الغامضة[2].

(١) جوستناف لوبون، حضارة العرب، ترجمة محمد عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٥ ص ٥٠٣ .

(٢) د/ سعيد عاشور، المدينة الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

٢ ـ الحسن بن الهيثم وعلم الفيزياء رائد علم الضوء

ولد في عام ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م في البصرة، بدأ حياته في أزهى عصور الحضارة الإسلامية من الناحية العلمية، ومن أزهى العصور في تاريخ العلم كله، فقد كان قد تم نقل كتب الفلسفة والطب والهندسة وعلم الرياضة ومن اللغة واليونانية إلى اللغة العربية(١).

وهو أحد علماء ثلاثة يزدهي بهم تاريخ العلم، وهم ابن سينا ، وابن الهيثم، والبيروني، بلغت الحضارة الإسلامية في عهدهم الذروة وهو ك وهو كأحد علماء الطبيعة (الفيزياء) الإسلاميين يعتير الأرفع شأناً والأعلى كعباً والأرسخ قدما. ولعله في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور(٢).

دأب ابن الهيثم على تحصيل العلوم الفلسفية والطبية والفلكية والرياضية قرآها قراءة تدبر وتفكير ودراسة ، وعنى بتلخيصها وشرحها، ثم ألف فيها العديد من الكتب والرسائل والتي بلغت في مجموعها ما يزيد على المأتينم في شتى مجالات المعرفة والعلوم، فبلغت في العلوم الرياضية (٢٥) كتاباً وفي الهندسة (٢١) كتاباً وفي الحساب ٣ كتب،

(١) عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الضحارة الأوربية، ص ٤٩ .

(٢) د/ عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور لعلماء العرب في تقدمه ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ١٤٥ .

وفي الطبيعة (الفيزياء) ٢٤ مجلد، وفي الفلك ٢٤ ، وفي الطب كتابين وفي الفلسفة والمنطق وعلم النفس ما يزيد عن أربعين مؤلفاً[١].

وتدل كتابات ابن الهيثم على استقلاله الفكري وعلم عدم التزامه بمن سبقوه ، وقد أخذ ابن الهيثم بالاستقراء والمشاهدة والاستنتاج مما وضعه في مقدمة علماء الطبيعة النظرية، بما وضع في ظواهر الضوء من نظريات في الأبصار وقوس قزح، وانعكاس الضوء وانعطافه، كما يضعه في المقدمة في علم الطبيعة بما أجراه من بحوث مبتكره في علم الضوء، وخاصة عندما أُبطِل الآراء القديمة في علم الضوء والتي تقوم على أن رؤية الأشياء تتم بخروج شعاع من العين إلى الجسم الذي تبصره ، فأكد

إن الأشياء المرئية هي التي تعكس الأشعة على العين ، فتبصرها بواسطة عدستها. وهكذا جعل ابن الهيتم على الضوء يتخذ صغة جديدة ، وينشأ نشأة أخرى غير نشأته الأولى، فكانت نظرياته هي الأساس الذي قام عليه علم الضوء الحديث[٢].

ويعتبر كتاب «المناظر» لابن الهيثم من أكبر الكتب استيفاء لبحوث الضوء وأرفعها قدراً. وهو يجري في عرضه للمادة العلمية على أحدث الأساليب القائمة على التجربة والمشاهدة والاستنتاج، إن لم يتفوق على

(١) نفس المرجع ، ص ١٤٦ .

(٢) د/ عز الدين فراج ، المرجع السابق ، ص٥١ -

بعضها في بحث الضوء، وتشريح العين، وكيفية تكوين الصور على شبكية العين. وقد اعترف علماء أوروبا بفضله في علم البصريات أمثال روجر بيكون وكبلر وغيرهم(١).

وقد أجمع علماء العرب المحدثين على أن المسلمين تفوقوا تفوقاً باهراً في ميدان الفيزياء، وبخاصة ما يختص بالعدسات والبصريات والصوت والمغناطيسية والجاذبية، فقد سبقوا علماء الإغريق، وقال علماء المسلمين بأن الضوء يسبق الصوت، وعللوا ذلك تعليلاً علمياً سليماً، فسروا في ضوئه ظهور البرق قبل سماع الرعد، كما شرحوا ظاهرة قوس قزح شرحا علمياً(٢).

وكان لكتابات ابن الهيثم تأثر كبير على علماء الغرب الناشئين أمثال روجر بيكون وكبلر وغيرهم في علم الضوء والبصريات ، فابن الهيثم هو أول من كتب في أقسام العين، كما كتب في خصائص العدسات والمرايا، وفسر الكثير من الظواهر الضوئية في الطبيعة، مثل انكسار الضوء الذي يصل إلينا منبعثاً من الأجرام السماوية والهالة التي ترى أحياناً حول الشمس والقمر. كما كتب الخازن البصري أبحاثاً في المرايا وأنواعها وحرارتها، وله كتاب مشهور في علم الطبيعة هو ميزان الحكمة(٣) وترجم إلى لغات أوروبية وقام ابن سينا بدراسات جديدة في الحركة والطاقة

(١) نفس المرجع ، ص ٥٢ .

(٢) د./ سعيد عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية، ص ١٢٩ .

(٣) قد ري حافظ طوقان، العلوم عند العرب، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٣ .

والفراغ والضوء ، وكتب الخوارزمي في الدوافع الميكانيكا كما كتبوا في الصوت وصداه[١].

٣ ـ ابن سينا وعلم الطب الإسلامي

رائد من رواد الفكر الإنساني، والمعلم الثالث للإنسانية بعد أرسطو والفارابي، وهو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، ولد في بخاري سنة ٣٧١ هـ / ٩٨٠ م . في فترة تعتبر من أزهى عصور الحضارة العلمية الإسلامية، سطع في سمائها ابن سينا، وابن الهيثم، والبيروني. درس الطبيعيات والعلوم الدينية، وقرأ كتب أرسطو وأفلاطون، واشتهر بالطب والفلسفة. كما عني بالرياضيات والفلك وكان يعالج المرضى دون أجر، واكتسب شهرة فاق بها أهل زمانه، حتى لقب بالشيخ الرئيس[٢].

ومن المعروف أن العرب عرفوا الطب منذ العصر الجاهلي، ولكنه كان طبا بدائياً اعتمد على الكهانة والتعاويذ والتمائم أكثر من اعتماده على الاستقصاء ومعرفة أسباب الداء قبل وصف الدواء. ومع ذلك فقد وجد إلى جانب العرافين والكهان جماعة من الأطباء قدموا النصائح السليمة للمرضى ووصفوا لعلاجهم بعض الأعشاب والنباتات ذات الأهمية

(١) نفس المرجع.

(٢) د/ عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

المعروفة في العلاج[١].

ولم تلبث أن ازدادت أهمية الطب عند العرب في ظل الإسلام، إذ أن الملمين آمنوا بأهمية الطب، عنوا به عناية فائقة، فبدأوا بترجمة كتب اليونانيين الطبية مثل جالينوس وأبو قراط وغيرهم. ولكن العرب لم يقنعوا بما رأوه في تلك المؤلفات من معلومات ، وإنما عدلوها وصححوها وأضافوا إليها، وكتبوا أبواباً جديدة في الطب والصيدلة لم يسبقهم إليها إنسان، معتمدني في ذلك على مشاهداتهم وتجاربهم الخاصة[٢] .

ودعا الإسلام إلى النظافة والطهارة في الجسم والملبس والمسكن والطريق، لأن الأقذار هي المصدر الرئيسي لميكروبات الأمراض.

فالمسلم لا يدخل الصلاة إلا بالنظافة. أما لارسول الكريم محمد ﷺ قد وضع في أحاديثه سبل الوقاية من أمراض الجهاز الهضمي. وهناك الكثير من الآيات القرآنية الأحاديث النبوية تدعو إلى الرعاية والوقاية الصحية[٣].

وهكذا فقد شهد العصر العباسي وبخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد والمأمون العصر الذهبي للتقدم العربي، وأصبحت بغداد مقر الخلافة الإسلامية وعروس الزمان وعاصمة العالم . وقد أنشأ هارون الرشيد

(١) د/ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢) قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب، ص ١٩ .

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

المستشفي العام في بغداد، وأقميت بعده مستشفيات أخرى، كما أنشأ العباسيون عيادات لنقل الخدمات الطبية إليك كافة الأرجاء. فظهر بذلك طب عربي إسلامي أصيل، ونظريات علمية مبتكرة(١).

وفي ذلك الوقت كادت تنعدم معلومات الأوروبيين في الطب بسبب الجهل وتزمت رجال الدين في العصور الوسطى حتى اعتبروا المرض نوعاً من الجزاء أو العقاب الإلهي لايصح للإنسان أن يعالج أو يبرأ منه(٢).

وعلى العموم ، فلقد استخدم المسلمون أطباء من أهل الذمة للعلاج، ولقد سمح النبي ﷺ بذلك، ولذا أكثر عدد المسيحيين واليهود العرب الذي مارسوا مهنة الطب في ظل الدولة الإسلامية. ومن أبرز هؤلاء في العصر العباسي. جورجيوس بن بختيشوع والذي أصبح الطبيب الخاص عند الخليفة المنصور، وكذل يوحنا بن ماسويه في عهد الخليفة المعتصم. واشتهر من أطباء العرب على بن سهل الطبري وكان نصراني صم أسلم في زمن المتوكل وصار طبيب الخليفة الخاص، وألف كتابه فردوس الحكمة وهو من أقدم المراجع العربيجة في الطب (٣).

---

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) Draper, J. w. : A Mistoryu of the Intellectual Development of Europe, Vo/2 London 1864, p. 88.

(٣) فيليب متى ، تاريخ العرب، جـ٢ بيروت ١٩٥٣ ، ص ٤٤٥ .

أما الرازي فكان من أشهر أطباء المسلمين، وظلت كتبه في الحميات كالحصبة والجدري من المراجع الأساسية التي اعتمد عليها الأطباء في غرب أوروبا زمناً طويلاً، ويلاحظ على كتبه سعة الاطلاع واستخدامه وسائل جديدة في العلاج.

وأشهر كتب الرازي الحاوي وكان من أهم مؤلفاته على الاطلاق وقد ترجم عدة مرات إلى اللاتينية وانشر في الجامعات الأوروبية، وكذلك تم ترجمة كتابه المنصوري. ويعبر الرازي من أعظم الأطباء في العصور والوسطى (١).

أما ابن سينا فهو اشهر أطباء العرب على وجه الإطلاق وأبعدهم أثراً. وقد بلغ من تقدير المعاصر بن لابن سيناء أن لقبوه بالشيخ الرئيس، كما لقب باملعلم الثاني، تشبيها له بأرسطو العلم الأول، كما أن كلمة الطب بجامعة باريس تحتفظ بصورتين كبيرتين أحداهما للرازي والأخرى لابن سيناء وترجع أهمية ابن سينا إلى براعته في كثير من العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب حتى بلغت مولفاته قرابة المائة ، تناولت الفلسفة والطب والهندسة والفلك وفقه اللغة والفنون. وأشهر كتبه كتاب القانون في الطب، ويعتبر دائرة معارف طبية، ففيه مايدل على أن أطباء المسلمين عرفوا مرض السل الرئوي ومرض الفيل ، وعرفوا التشريح. وقد قسم ابن

(١) نفس المرجع ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

سينا كتابه إلى خمس أجزاء يتناول الأول علم الطب، والثاني علم الأدوية، والثالث في ا لأمراض العضوية والرابع كذلك، والخامس في ا لأمراض المركبة. وقد طبع كتاب القانون عدة مرات(١). وكتاب القانون في الطب يعتبر من أشهر كتب ابن سينا في الطب، حتي اعتبره الأوروبيون خير ما أنتجته الفريحة الإسلامية. أما المؤلف الطبي الثاني لابن سينا وهو كتاب الأدوية القلبية» فلم ينشر بعد. ولهخ كتاب الشفاء وهو اشهر ما كتبه ابن سينا في الفلسفة(٢).

أما بن النفيس في فعتبر صاحب الفضل الأول في الكشف عن الدورة الدموية في الرئتين . وهاذ العالم العربي المسلم، كان عبقرية عربية، مارس التشريح وقد راجع ما جاء في كتاب القانون لابن سينا. فكتب في كتابه شرح تشريح القانون» أن الدم ينتقل من الجانب الأيمن للقلب إلى الرئتين أولاً، وهنات عن طريق الشعيرات الدقيقة يخالط الهواء في الحويصلات الرئوية الدقيقة، فيصلح أمره، ويعدو إلى الجانب الأيسر من القلب بعد ذلك، واختصر كتاب القانون وسماه موجز القانون(٣).

كذلك عرف أطباء العرب الأمراض النفسية ووضعوا لها أكثر من علاج وفسروا كثيراً منها في ضوء العامل الجنسي. وهكذا توصل علماء

(١) د/ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ - ١٥٦ .

(٢) Browne, E.G. Arabian Medicine, London 1921.

(٣) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ١٥٥ .

المسلمين إلى تفسير بعض الأمراض العصبية والنفسية في ضوء العامل الجنسي، وذلك قبل أن يولد فرويد بمئات السنين(١).

أما في الجراحة فمن أشهر جراحي القرب أبو القاسم خلف بن العباسي الزهراوي الذي اخترع كثيرا من العمليات الجراحية الدقيقة في العيون والأسنان والوالدة، ومن العمليات الجراحية التي نبغ فيها عملية سحق الحصاه في المثانة واستخراجها،روبخاصة استئصال حصى المثانة عند النساء عن طريق المهبل كذلك أوضح أهمية اكلي في فتح الخراجات واستئصال الأورام الرطانية وأشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء في حالة إجراء جراحية لإمرأة ، ولأن ذلك أدعى للطمأنينة والرقة(٢).

وقد وضع أبو القاسم ثمرة خبرته في كتاب أسماه « التريف لمن عجز عن التأليف » وظل هذا الكتاب بمثابة المرجع الأساسي الذي أعمد عليه الأوروبيون في الجراحة وتجبير العظام طوال عدة قرون، وذلك بعد أن ترجموه إلى اللاتينية. وترك أبو القاسم أيضا مرجعاً صغيرا في وصف الآلات المستعملة في العمليات الجراحية وطرق استخدامها مع توضيح كل ذلك بالرسم. ويعتبر هذا المرجع الأول في نوعه وموضوعه، مما أكسبه أهمية كبرى. ويقع كتاب الزهرواي في عشرين جزءاً(٣).

---

(١) د/سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(٢) DRAPER, J. W. OP. CIT. , VOL,. 2,38

(٣) Ibid

وهناك مؤلفات طبية أخرى لابن زهر وابن رشد وابن البيطار.. إلخ ولكن الأطباء المسلمين حققوا نتائج مازال يعتمد عليها الطب الحديث،

وإلى أن الفحص الطبي عندهم لا يختلف كثيراً عما هو عليه الآن: ذلك أن قبل وصف الدواء كانوا يفحصون البول ويجسون النبض ويسألون المريض عن أسلوب حياته وعاداته والأمراض التي سبق أن أصيب بها، وغيرها من النواحي كالتي يعتني بها الطب الحديث . أما لنتائج التي توصلوا إليها فكانت عديدة: من ذلفك أنهم وصفوا صب الماء البارد لمعالجة النزيف، ووصفوا نبات وبذور الخلة لتوسيع المجاري البولية والمساعدة على التخلص من الحصاة، ونسبوا البواسير إلي قبض المعدة ووصفوا الزيوت النباتية والخضروات علاجاً لها(١).

ومهما يكن من أمر فقد تركت مؤلفات أطباء المسلني أثرغاً عظيماً في تاريخ العلوم وتطورها . فكتب الرازي ترجمت إلى اللاتينية ثم طبعت عدة مرات في أوروبا، وحصلت منه أوبا على فوائد عظمية حيث ظل مستعملاً حتى غلبت عليه كتابات ابن سينا. كما أن دراسة الطب في أوروبا اعتمدت على كتب الرازي وابن سينا وكذلك اعتمدت كبت الجراحة على كتب أبي القاسم(٢).

(١) قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ٢١

(١) جوستاف فالوبون، حضارة العرب، ص٥١٩.

وقد عني العرب بالمستشفيات. كما أشرنا عناية فائقة، هذا فضلا عن أنمها فتحت أبوابها لجميع لاناس على حد سواء كانت المستشفيات عند المسلمين تضمن جناحاً خاصاً بالنساء غير الجناح الخاص بالرجال، وكل جناح من هذين الجناحين ضم أقساماً مختلفة باختلاف الأمراض العيون والكسور والجراحة: وكان المسلمون يدققون في اختيار المكان الصحي المناسب، كما يتضح ذلك مما فعله الرازي عندما عهد إليه إقامة بيمارستان (مستشفى) في أحد أنحاء المدينة. وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين فكرة إلحاق كليات الطب بالمستشفيات ، حتى تكون دراسة الطلبة عملية واقعية، بحي ثلا يصرح لأحد مباشرة مهنة الطب إلا بتصريح من الدولة[١].

وحدري بذالذكر أن الطب عند العرب لم يقتصر على الجانب البشري، وإنما تناول أيضا الجانب البيطري، وقد اشتهر عند الخليفة المعتضد (٨٩٢ - ٩٠٢) رجل اسمه يعقوب ابن أخي حزام، وضع رسالة آسمها «الفروسية وشياة الخيل» ضمنها معلومات طبية عن الطب البيطري توجد نسخة مخطوطة في المتحف البريطاني[٢].

(٢) سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص ١٦٢ - ٢٦٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦٤ .

٤ ـ الصيدلة وعلماء المسلمين

كان العرب أول من وضع كتب الأدوية (الأقربادني) ، وأول من أسس مدرسة خاصة للصيدلة ، كما كانوا أو لمن أسس الحوانيت لبيع العقاقير والأدوية. فقد أقام الأطباء ا لمسلمون في بغداد أول صيدلية منظمة ، تمد الناس، بالأدوية كما وضعوا كثيراً من المصنفات والكتب في خواص الأدوية وتركيبها وتصنيفها ومفعولها وخواصها. واخترعوا الكحول والأشربة والخلاصات والتي كان يصفها الأطباء للمرضى[١].

ثم إن العلم ادحدث يدين للعرب باستعمال عقاقير وأدوية كثيرة كالكافور والصندل والكحول والقرنفل وجوز الطب والمر والعنبر، وغيرها من الأشربة والمراهم. وقد أجرى العرب تجارب عديدة على الحيوانات للوقوف على أثر بعض العقاقير لاسيما أثر المخدرات والأفيون في تسكين الألم. أما البنج فقد عرفه العرب في العمليات الجراحية باستخدام الزؤان حتى يفقد المريض حواسه[٢].

ومن خير الكتب الت يدونها العرب في الصيدلة والأدوية كتاب «جامع المفردات» لابن البيطار (١١٩٧ ـ ١٢٤٨). وقد جاء في مقدمته أن «الغرض الأول بهذا الكتاب استيعاب القول في الأدوية المفردة.. والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عن دالاحتياج» كذلك ذكر

(١) د/ عز الدين فراج حضارة العرب ، ص ٥١٨ .

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٥١٨ .

ابن رشد الأدوية اللازمة لعلاج مختلف الأمراض وأثرها سواء الأعشاب أم السوائل أم البقول أم الفواكه أم الأدوية المعدنية، كما تناول قوانين تركيب الأدوية والانفعالات التي تحدثها بالجسم. ولم يقتصر ابن رشد في علاجه على الأدوية والانفعالات التي تحدثها بالجسم. ولم يقتصر ابن رشد في علاجه على الأدوية والانفعالات التي تحدثها الجسم. ولم يقتصر ابن رشد في علاجه على الأدوية السابقة وإنما تكلم عن الرياضة والتدليك والنوم واستخدام حمام البخار والاستحمام عندالإصابة بالحميات(١).

وقد وصف الرازي الغذاء ووضح منافع كل نوع ومضاره في كتابه منافع الأغذية ودفع مضارها» يذكر فيه ألوان الطعام وطرق عملها ومزايا أو مضار كل لون. وابن سينا ينصح بتعديل الطعام بحيث لا يزيد أو لا يقل عن اللازم(٢).

٥ ـ الرياضيات وعلماء المسلمين

نهض العرب بالرياضيات نهضة عظيمة سواء الحساب أو الهندسة أو الجبر أو حساب المثلثات أو الميكانيكا أو الفلك. والمعروف أن المسلمين بنوا معارفهم في الرياضيات على أساس من علوم اليونانيين والهنود، ثم

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق ص ١٦٦ .

(٢) نفس المرجع، ص ١٦٧ .

تقدموا بهذه العلوم وخطوا بها خطوات واسعة نحو الأمام حتى ظهر منهم في المشرق علماء مبرزون في العلوم الرياضية مثل الخوازمي وثابت بن قرة (ت ٩٠١) والبتاني (ت ٩٢٩) وعمر ابن إبراهيم الخيام (ت ١١٣٢) .

والخازن البصري وأبو الوفاء البوزجاني . أما في المغرب الإسلامي فقد ظهر مسلمة المجريطي إمام الرياضيين بالأندلس (ت ١٠٠٧) والذي كان من تلاميذه ابن السمح (ت ١٠٣٤) وابن الصغار والكرماني، وأمية بن أبي الصلت وغيرهم[١] .

وتقدم المسلمون بالحساب خطوات واسعة، فأضافوا إلى معلومات اليونانيين كثيراً من النظريات التي لم تعرفها أوروبا من قبل كما علموا الأوروبيين نظام الأعداد الهندية الذي يمثل ثورة شاملة في علم الحساب .

ويعزى إلى العالم الهندي الذي وفد على بلاط الخليفة المنصور ومعه كتاب « االسندهند » أمر إدخال مبادئ الحساب الهندي والأرقام الهندية ومعها الصفر. وعلى ذلك فإن هذه الأرقام الهندية دخلت العالم الإسلام عن طريق ترجمة الكتب الهندية الت قام بها الفرازي، ثم ظهرت تقاويم الخوارزمي فذاعت هذه الأرقام بواسطتها في العالم الغربي ثم انتقلت إلى الغرب الأوربي بعد تنقيحها[٢] . كما أوجد العرب طريقة الإحصاء

(١) Draper, J.W., op.dcit. , vol 2 pl. 91

(٢) Ibid , p. 39 .

العشري وعلامة الكسر العشري، وبذلك أحدثوا ثورة ضخمة في علم الحساب.

وقد كتب البيروني رسالة هامة في الأعداد ونسبها، أسماها راشكاف الهند » كما شرح اليعقوبي في تاريخه نظام الأعداد الجديد الذي أخذه المسلمون عن الهنود فقال: « .. ووضع التسعة الأحرف الهندية التي يخرج جميع الحساب الذي لا يدرك معرفتها ، وهي ١،٢،٣،٤،٥،٦،٧،٨،٩، ٠ فالأول منها واحد وهو شعرة ومائة ، وهو ألف ومائة ألف، وهو ألف ألف وعلى هذا الحساب يجري التسعة أحرف صاعداً. غير أن بيت الواحد معروف من العشرة، وكذلك بيت العشرة معروف من المائة، وكذلك كل بيت. وإذا خلا بيت منها يجعل فيه الصفر ويكون الصفر دارة صغيرة.. »[١].

ولاريب أن الصفر يعتبر من أخطر المبادئ التي اهتدى إليها العقل البشري في الرياضيات. ولم يعرف الغرب استعمال الصفر إلا عن طريق العرب في القرن الثاني عشر حتيس قال أير **Eyre** أن فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التي قدمها المسلمون إلى غرب أوروبا[٢].

وجدير بالذكر أن العرب أخذوا عن الهنود نظام الترقيم بدلاً من حساب الجمل الذي كانوا يستعملونه ، وقد اقتبسوه عن بعض البلاد

---

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٢) **Eyre, Ddward, European Civilisation, bvds, otford 1953 , vol 3 - p. 299 .**

التي فتحوها وهو:

أ - ب - جـ - د - هـ - و - ز - ح - ط - ي ك - ك - م

١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - ١٠ - ٢٠ - ٣٠ - ٤٠ ٥٠ - ٦٠ - ٧٠ -

ن - س - ع - ف - ص - ق - ر - ش - ت - ث - خ - ذ - ض - ظ - غ

٨٠ - ٩٠ - ١٠٠ - ٢٠٠ - ٣٠٠ - ٤٠٠ - ٥٠٠ - ٦٠٠ - ٧٠٠ - ٩٠٠ - ١٠٠٠

ورمزوا للأعداد التي تزيد على الألف بضم الحروف بعضها إلى بعض:

بغ، جغ ، ككغم ،

٢٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ، ٢٠,٠٠٠ ، ١٠٠,٠٠٠ (١)

وخلاصة القول أن العرب خطوا بعلم الحساب خطوات واسعة لولاها ما وصل العالم اليوم إلى ما وصل إليه من قوانين رياضية وطبيعية تؤثر في مصير البشرية. هذا فضلاً عن أنهم عرفوا الكسر العشري(٢).

ولم يقتصر فضل الحضارة الإسلامية على الغرب الأوربي في ميدان

---

(١) د/ عبد الحليمن منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمهخ ، ص ٩٢ .

(٢) **Eyre, Edeward, op. cit. p 299**

الرياضيات على علم الحساب وإنما امتد إلى بقية العلوم الرياضية وعلى رأسها على الجبر الذي لا يزال محتفظا بامسه العربي في كافة ا للغات الأوربية **(Algebra)** بعد أن أخذه الأوربيون عن العرب. وقد بلغ من اهتمام العرب بعلم الجبر أن الخليفة المأمون كلف محمد بن موسى الخوارزمي بوضع كتاب في هذا العلم، وهو أول كتاب في الجبر يؤلف في صورة علمية دقيقة. كما اهتم العرب الهندسة وعلم المثلثات والميكانيكا وطبقوا الجبر على هذه العلوم الرياضية(١).

ومن أبرز العلماء المسلمين الذين كتبوا في الهندسة وحساب المثلثات الخوارزمي وثابت بن قرة والطوطي البتاني، والخازن البصري وابن الهيثم والبيروني. ومعظم هذه المؤلفات العربية قام الأوربيون بترجمتها إلى اللاتينية. أما معلومات العرب في الميكانيكا (علم الجيل) فكانت واسعة عظمية تدل لعهيا بقايا آلاتهم ووصفهم لها في الكتب. ويعتبر كتاب الجيل لأبناء موسى بن شاكر، دراسة طيبة في أصول الميكانيكا وزاد العرب على هذه المعلومات حتى توصلوا إلى اختراع رقاص الساعة(٢).

وخلاصة القول أن المسلين قطعوا شوطاً بعيداً في الرياضيات فاستفادت أوربا منهم فائدة عظيمة في هذا الميادن. وإن المتأمل في كتاب من كتبهم

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ١٠٨ .

(٢) قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب، ص ٣٦ ، ٣٧ .

الرياضية ليأخذه العجب بما وصل إليه رياضيو المسلمين من اتساع المعرفة ودقة البحث[١].

٦ ـ علماء المسلمين وعلم الفلك

يرجع العلماء أن اتمام المسلمين بتعيين القبلة التي يولون وجوههم شطرها أينما كانوا خمس مرات كل يوم ، كان حافزاً قويا لهم للاهتمام بالفلك ودراسته دراسة سليمة. هذا إلى أن تقدم المسلمين في العلوم الرياضية ساعد على تفوقهم في علم الفلك الذي عنوا به هو الآخر عناية عظيمة، تدل عليها المراصد العديدة التي انشرت في مختلف أرجاء البلاد الإسلامية مثل مراصد سمرقنمد ودمشق والقاهرة وفاس وطليطلة وقرطبة.

واستخدم الفلكيون العرب أجهزة وآلات بالغة الدقة منها مقياس الارتفاع والإسطرلاب والمزولة وغيرها. وقد ترجم العرب المراجع الفلكية القديمة عند اليونانيين والفرس والهند وغيرهم، ولم يقتصروا على الترجمة وإنما صححوا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها القدماء وتوسعوا في المباحث الفلكية ونقل الأوربيون أصول علم الفلك من المراجع العربية[١].

وتبغ من فلكي المسلمين كثيرون من أبرزهم أبو الريحان محمد بن أحمد البروني ٩٧٣ ـ ١٠٤٨)، فقد كان فلكيا مرموقاً وعالماً جليلاً، وهو

(١) **Draper, J.w. op. cit. vol 2, p. 47 .**

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ١١٢ ،

ثالث الثلاثة) (ابن سينا، ابن الهيثم، البيروني) الذين أزدهت بهم الحضارة العربية الإسلامية. فدرس الفلك والرياضيات والطب والتاريخ. ومن أبرز مؤلفاته « الأثار الباقية من القرون الخالية » وترجم إلى اللاتينية، كما ألف كتاب « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » وهو من أضخم مؤلفاته، وقام على البحث والتجربة الشخصية، وبلغ عدد مؤلفاته مائة وثمانين كتاباً ورسالة وترجمت إلى اللغات الأوربية. ووضع ملخصاً للرياضة والفلك التنجيم في كتابة « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم »[1].

كما نبغ من الفلكيين محمد البتاني ومحمد الفرغاني الذي قام بأبحاث في تجديد طول السنة تحديداً مضبوطاً، وابن يونس المصري الذي قام بأبحاث في تجديد طوال السنة تحديداً مضبوطاً.، وابنم يونس المصري الذي قام بأبحاث في كسوف الشمس وخسوف القمر ، والبوزجاني الذي وضع جداول فلكية على أن أهم مؤلفات الفلكيين السابقين هو كتاب « الزبرج الصائي » للبتاني الذي كان له أثر كبير في علم الفلك في الشرق والغرب على السواء. وهكذا استطاع العرب أن يتوصلوا إلى نتائج باهرة منها كروية الأرض ودورانها حول محورها، وقدروا محيط الأرض وقياس طول السنة الشمسية. وقد وضع فلكيو العرب جداول لأمكنة الكواكب السيارة، واستعملوا الألاف الفلكية كالأسطرلاب. وقد نجم

---

(١) د/ عبد الحليم ، المرجع السابق، ص ١٥٣ ـ ١٥٥ .

العرب في جعل علم الفلك علماً قائماً بذاته نقياً من خرافات التنجيم، وجعلوه علماً استقرائياً عملياً يقوم على أساس المشاهدة والاستنتاج. ومازال علم الفلك حتى اليوم ملئ بالاصطلاحات العربية وأسماء الأبراج والكواكب والنجوم والتي أخذها الأوربيون من العربية دون تحريف مثل الطرف **Altaref** والأرنب **Arneb** والكف **Cahh** والبطين**Botein** والوزن **Wezn** وغيرها(١)

٧ ـ علماء المسلمين وعلم الجغرافيا والرحلات والتجارة

كان العرب من قديم الزمان يجوبون البحار ويشتغلون بالتجارة فشجعهم ذلك على تدوين ما عرفوه في كتب مكتوبة، تضمنت أوصافاً وتقارير وافية، عن أحوازل البلدان الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، لقد مرجعاً أساسياً في دراسة علم الجغرافيا بفروعه. وكنت الجغرافيا في نظرا المقدسي » علما لابد منه للتاجر والمسافر والملوك والكبراء والقضاة والفقهاء ». ولا شك في أن اتساع الدولة الإسلامية وحب المسلمين للتنقل والترحال في سبيل التجارة وطلب العلم جعلهم يهتمون بعلم الجغرافيا وينبغون فيه، فجابوا البلاد من شرق آسيا إلى مجاهل أفريقيا، وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوربيون بها في العصور

(١) Singer,c. From Magic to Science , London P. 84 1928

الوسطى. ولعل النقود الإسلامية التي عثر عليها المنقبون في أوروبا وأسيا وأفريقيا لتدل على مدى نشاط العرب السياحي والتجاري وعظم محصولهم الجغرافي ، وهو ما تشهد به مؤلفات العرب الجغرافية(١).

وقد بلغت رحلات العرب أوجها في القرن الرابع الميلادي،الذي عاش فيه الرحالة ابن بطوطة الذي زار معظم بلاد العالم القديم على مدى ثلاثين عاماً وعاد إلى بلاده ليسجل ملاحظاته على هذه الرحلة التي أفادت علم الجغرافيا، فوصف فيما كل ما رإى وسمع وعبرت هذه الأوصاف عن البيئة الطبيعية والتضاريس والجغرافية البشرية والسكان والعادات والتقاليد فكانت رحلاته وكتاباته أحسن ماكب في آواخر القرون الوسطى(٢).

وقد نبغ في علم الجغرافيا علماء أفذاذ من أبرزهم المسعودي والذي وضع في كتابه مروج الذهب فصولاً عن المد والجذر والبحار، وكذلك المقديس الذي ألف كتابه الشهير « أحسنخ التقاسيم في معرفة الأقاليم » والإدريس الذي ألف كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ويعتبر كتابه في نظر المؤلفين الغربيين أفضل رسالة في الجغرافيا في العصور الوسطى(٣) ومن علماء العرب في القرن التاسع الميلادي الذين قدموا

---

(١) **Taylor, H.o. Geography in the Twentieth century , London 1951 , p. 32.**

(٢) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، صث ٩٢ - ٩٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٩٤ .

خدمات جليلة لهذا العلم: اليعقوبي الذي أعطى في كتابة البلدان وصفاً مفصلا لكثير من البلدان ، أما « فضلان » في القرن العاشر فزار روسيا والبلغار ورسم صرة واضحة لشعوب تلك المنطقة من آسيا الوسطى، وجاء من بعده المسعودي فدرس بتعمق الدراسات الجغرافية ، وقام برحلات طويلة إلى بحر الصين وإلي سواحل أفريقية الشرقية.

وأما المقدسي فزار معظم أقاليم العالم الإسلامي وغيرها. وتحدث في كتابة أحسن التقاسيم عن كل أنواع الجغرافيا، كما درس البيروني في كتابة « الأثار الباقية من القرون الخالية » ثروة من المعلومات عن الهند وجغرافيتها وتاريخها ومعارفها في العلوم مفسر حركة المد والجزر . وفي القرن الثاني عشر أصدر الإدريسي كما أشرنا كتابة « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهوكتاب يبحث في الجغرافيا بأنواعها،وعمل كرة أرضية وصنع خريطة للعالم على شكل طبق من فضة، كما وضع ابن خلدون في أوائل القرن الخس عشر الأسس الأولى لعلم الجغرافيا البشرية. فكان بذلك الرائد الأول للعلوم الاجتماعية في شكلها الحديث. وكانت كتابات ابن خلدون الأساس الأول لعلمي الاجتماع والجغرافيا البشرية.

ومهما يكن من أمر ، فلم يعتمد المسلمون في جمع معلوماتهم على مجرد السمع والنقل، بل سلكوا السبيل الصحيح للبحث وهو طريق التجربة والمشاهدة، الجغرافيا الحديث[1] وهناك عدد من الرحالة المسلمين

(١) د/ عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، ص ٩٤ ـ ٩٨ .

أمثال بان حوقل والقزويني وياقوت الحموي. وكل من هؤلاء الأعلام أسهم بنصيب وافر في بناء علم الجغرافيا وفي زيادة المعلومات الجغرافية

ومن المعروف أن الجغرافيين المسلمين تمسكوا بفكرة كروية الأرض، فأكد ذلك المسعودي وابن خرداذبة وغيرهم. ولا يستبعد أن تكون محاولة الدوران حوال الأرض موضع تفكيرهم بعد أن عرفوا البوصلة واستخدموها في الملاحة البحرية على نطاق واسع(١).

وقد دفع ذلك كثيراً من الباحثين إلى القول بأن العرب هم أول من اكتشف أمريكا لاسيما بعد أن أكدت الأبحاث الأخيرة التي أجراها علماء النبات انتقال ا لنباتات إلى العالم الجديد لم تكن معروفة فيه من قبل، وذلك قبل عصر كريستوفر كولمبس بوقت طويل. فقد قال العلامة « تايلر » أن الملاحين الأسبان والبرتغاليين الذين اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح، قد أخذوا لفنون البحرية وتعلموها عن معلميهم من العرب، وهم مدينون لهم بهذه الاكتشافات » كما يرجع الفضل إلى العرب في تهيئة أذهان الأوربيين لقبول فكرة وجود أرض أخرى عبر آفاق المحيط الأطلسي(٢).

---

(١) **Taylor, G. , Geography in the Twentieth century.**

(٢) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

وقد درس فاسكو دي جاما الخرائط التي وضعها العرب للبحار وأعجب بها إلى حد كبير، حيث عرف العرب الأنواء البحرية والموسمية ومواعيدها، وعينوا الأيام الصالحة للملاحة، وتوسعوا في أمال الملاحة فاتخذوا الأساطيل الحربية الي جانب السفن التجارية التي كانت تجوب المحيط الهندي والبحر المتوسط (١) كذلك ذكر في المراجع الأوربية أن كولمبس أطلع على كتب كثيرة في الجغرافيا والرحلات قبل قيامه في رحلته الكشفية إلى أمريكا(٢).

وهكذا يبدو لنا فضل المسلمين على علم الجغرافيا، وعلى تزويد أوروبا بقسط وفير من الدراسات الجغرافية التي لم تعرفها في العصور الوسطى. كما ساعد البوصلة العرب على القيام برحلاتهم العملية والتجارية الواسعة. فقد استخدم العرب البوصلة في الملاحة، وهم الذي نقلوا ذلك الاختراع إلى أوروبا وعلموا الأوربيين استعمال البوصلة. وأثبت العرب أنهم ملاحون مهرة، فاستخدموا البوصلة في الملاحة(٣).

وهكذا تمكن العرب من ارتياد البحار في جرأة ومهارة فائقة، حتى ملكوا في أيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب. وقد احتلت تجارة المسلمين في القرن الرابع الهجري على حد قول آدم ميتز ـ المكان الأول في

(١) د/ عز الدين فراج، المرجع السابق، ص ١٠ ـ ١٠١ .

(٢) د/ سعيد عاشور ، المرجع السابق، ص ١٢٣ .

(٣) جورج يعقوب ، أثر الشرق في الغرب، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٢٦ .

التجارة العالمية حتي صارت الأسكندرية وبغداد هما اللاتا تقرران الأسعار في ذلك العصر(١).

وقد نشأ عن هذا التقدم التجاري ازدهار الجاليات الإسلامية في كثير من البلدان التي تغلب عليها غير المسلمين، وفكان يرأسهم مسلم، ويلا يقبلون حكم غيرالمسلمين فيهم، ولا يعتولى حدودوهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون وإن قلوا ذلك مثل بلاد الخزر وغانا والهند وغيرها. وكأن رئيس الجالية الإسلامية يقضي بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة وإذا خطب في المسلمين في الجمع والأعياد دعا في خطبته لسلطان المسلمين(٢).وهكذا أدى نشاط المسلمين التجاري إلى ابتكارهم بعض النظم المالية والتجارية التي تعلمتها أوروبا منهم، فالعرب عرفوا نظام الحوالات المالية وعنهم أخذت أوروبا. فلفظ **Aval** من العرب إلى أوروبا، وكذلك كلمة دينار **,Dinar** وبازار **Bazaar**. ومن المصطلحات البحرية **Admiral**من أمير البحر **Felouque** من الفلك وغيرها.

ولا يفوتنا أن نذكر تفوق العرب في الجغرافيا وما حققوه من نتائج حول طبيعة الأرض والمظاهر الجيولوجية المختلفة كالزلازل وعوامل التعرية والنحت وغيرها(٣).

(١) آدم منير الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جـ٢ ، ص ٣٦٥ .

(٢) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٣) جورج يعقوب، أثر الشرق في الغرب، ص ٥٢ .

(٤) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ .

٨ ـ الأدب العربي

تأثرت الآداب الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة تأثراً واضحاً بموضوعات الأدب العربي الإسلامي، فقد ترك القصص الإسلامي والشعر أثره في الأوربيين سرعان ما ظهر أثر الشعر العربي في الأشعار الأوربية حتى أن داني أكد أن العشر الإيطالي ولد في صقلية حيث كان للعرب حضارة زاهرة. وقد ظهر أثر الشعر العربي في الأندلس في شعر التروبادور الأوروبي وتشير الأدلة إلى أن شعر الزوبادور إنما جاء وليد مؤثرات عربية أندلسية(١).

كذلك تأثر الأدب الأوربي بالنثر العربي وهي القصص الخرافية ذات المغزى الأخلاقي، أو التي تتخذ الحيوان محوراً لها. كما قلد الأوربيون العرب في القصص التي تتناول المغامرات والفروسية والأعياد وصراع الثيران والتفاخر ورقص الفرسان وغيرها من القصص الأندلسي(٢).

وهكذا استطاع الأدب العربي أن يؤثر تأثيراً واضحاً في الأدب الأوربي ليس فقط في العصور الوسطى، بل الحديثة، فالروح الأندلسية تبدو واضحة في القصص الأوربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وهذه القصص تعبر في مجموعها عن صدى الثقافة العربية الإسلامية في

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٤٧٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤٩ .

الفكر الأوروبي. ويظهر ذلك واضحاً جلياً فيس كتابات سرفانيتس الكاتب الأسباني المعاصر لشكسبير، وهو يعتبر من أعظم كتاب القصة العالميين، تأثر بالثقافة العربية الأندلسية. كما أثرت المقامات العربية في الأدب الأوروبي في العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة. وأشهر هذه المقامات مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان الهمزاني[١].

وكان للعة العربية أثر عميق في اللغات الأوربية، فبعد إن كانت اللاتينية هي اللغات العالمية المستعملة في غرب أوروبا إذ بالأوروبيين من المتعلمين والمثقفين تيصراون إلى اللغة العربية بوصفها لغة الثقافة الراقية والعلم، ومما أدى إلى إهمال اللاتينية، مما أدى إلى نشأة الغات الأوروبية الحديثة، وفيها كثير من الألفاظ العربية، فمنها ماهو خاص بأسماء الطيور والحيوانات والنجوم والكيمياء والنبات والأقمشة والملابس[٢].

وقد ذكر المستشرق الإنجليزي تايلور بان هناك حوالي ألف كلمة ذات أصل عربي في اللغة الإنجليزية، وآلاف أخرى مشتقة من هذه الكلمات انتقلت من العربية بعد التحريف والتبديل في النطق، فهناك حوالي ٢٦٠ كلمة من الألف تستعمل يومياً ومن هذه الكلمات. صك (شيك) **Cheque** ، القهوة **Coffee** الصفر, **Cihher** قرمزي **Crimson**قطن **Cotton**

(١) جب، تراث الإسلام ، القاهرة ١٩٣٦ ص ١٨٨ ـ ٢٠٢ .

(٢) د/سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

ززاقة **Giraff** ، غزال **Gazelle**، ياسمين **Jasmine**، مسك **Musk** سكر **Sugar**، عطار **Attar** ، قميص **Camise** ، ليفه **, Loofa** الغول **Ghoul** بلبل **, Bulbul**الخباء **Al tienna**، الكافور **,Camphor** الحشيش **Hashecsh** ، كبريت **Kibrit** وغيرها من الكلمات(١).

ويبدو أن الجامعات الأوروبية الناشئة أحست بأهمية اللغة العربية كلمة للعلم والمعرفة ، فحرص بعضها على إدخال دراسة اللغة العربية فيها منذ القرن الثالث عشر(٢).

(١) **Taylor, w. Arabic weords in English, London 1933 , pl. 567 - 583 ,**

(٢) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

٩ ـ علماء المسلمين والفلسفة.

شهد الشرق الإسلامي نشاط بعض كبار الفلاسفة أمثال الفارابي (ت ٨٥٠م) واكلندي (ت ٨٧٣) وابن سينا (ت١٠٣٧م). ولكن تأثير الفلسفة الإسلامية على الفكر الأوربي كان مركزة الأندلسي ، لأن أوروبا لم تعرف فلاسفة المشرق إلاعن طريق الأندلس، حيث أشرف ريموند أسقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم.

وعلى العموم، فقط ظلت الصلات الفكرية والعلمية قوية بين المشرق والمغرب الإسلاميين، رغم ما حدث بينهما من شقاق سياسي . ولا شك في أن وحدة اللغة والدين في جميع أنحاء العالم الإسلامي ساعدت على نشاط التبادل الفكري وانتقال العلماء والكتب بين المشرق والمغرب[١].

وإذا كان المشرق الإسلامي امتاز بفلاسفته العظماء الذين سبق أن ذكرناهم، فإن الأندلس كان له هو الآخر فلاسفته الذين ضربوا الرقم القياسي في حرية الفكر ، وتركوا أبعد الأثر في الفكر الأوروبي. وأهم فلاسفة الأندلس ثالثة هم ابن باجه وابن طفيل وابن رشد، وهؤلاء جميعاً كان تأثيرهم في غرب أوروبا أكثر منه في العالم الإسلامي[٢].

وجدير بالذكر أن ابن رشد يعتبر أكبر شارح لفلسفة أرسطو، وعبر عن

(١) أحمد أمين ، ظهور الإسلام، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٣ جـ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ .

(٢) د/ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

آراء أرسطو تعبيراً صادقاً، فأعلن كرهه للاستبداد، ويرى البعض أن ابن رشد استمد فلسفته من أسلافه أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وكلهه تعاليم فلسفة أرسطو. ولكن ابن رشد أضاف إليها نظريات من الأفلاطونية وشروح فلاسفة العرب. وفاق ابن رشد الجميع في دقة النقد وشدة العمق وقوة الأدلة(١).

ومهما يكن من أمر، فإن آراء ابن رشد خالفت تعاليم الكنيسة، ولذلك أحدثت هياجاً عاماً في غرب أوروبا، فنقمت الكنيسة الغربية على أرسطوا وابن رشدة، فأصدرت الكنيسة قراراً بتحريم آرائهما (أرسطو وابن رشد)وقد أدت فلسفة ابن رشد إلى خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة(٢) وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر تحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة.

(١) جوستاف لوبون، المرجع السابق، ص ٤٤٤ .

(٢) **Dampier, op.cit,. p. 40**

١٠ ـ ابن البطار رائدعلم النبات

اهتم العرب بعلم النبات كثير الأهمية النباتات والأعشاب في الغذاء والدواء. ويعتبر ابن البيطار أكثرهم انتاجاً وأدقهم دراسة في فحص النباتات في مختلف بلدان العلام الإسلامي، حتى عينه الكامل الأويوبي رئيساً للعشابين بمصر. فذكر كثيراً عن أسماء الأعشاب وفوائدها في كتابة «جامع المفردات» وكان ابن البيطار يسجل أسماء الأدوية في كتابة، بالإضافة إلى منابت الدواء ومنافعه وتجاربه[١].

وقد عرف علماء المسلمين طريقة إنتاج فواكه جديدة بطرق التطعيم، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز، وأوجد عن طريق التطعيم أزهار نادرة جميلة المنظر. وكان رشيد الذين الصبوري يسطحب معه مصوراً عند بحثه عن الحشائش في منابتها ومعه الأصباغ، فكان يتوجه إلى المواضع التي بها لنبات فيشاهد ويحققه ويريه للمصور[٢].

كذلك نبغ العرب وبخاصة في الأندلس ومن أبرزهم ابن العوام في معرفة خواص التربة وكيفية تركيب السماد وتحسين طرق الري والزراعة واستصلاح الأرض البور، ووصفوا كثيراً من الأمراض والآفات التي تصيب النبات وطرق مقاومتها.. وغير ذلك مما يشهد على تفوقهم في عالم النبات والزراعة[٣].

(١) قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) نفس المرجع.

(٣) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٥١٨

وهكذان فإن التراث العربي العظيم في مختلف العلوم، كان له أثر كبير في الحياة العلمية الأوربية، وأصبحت معرفة العربية شرطاً أساسياً يجب أن يتوافر في الأوربي المثقف، مما جعل الجامعات الأوربية تعني باللغة العربية بوصفها لغة العلم والمعرفة. وقد تأثرت الجامعات الأوروبية بالجامعات الأزهرية والمدرسة النظامية في بغداد وكذلك المستنصرية ونقل الأوروبيون نظم الدراسة والقوانين الجامعية من الجامعات الإسلامية إلى الجامعات الأوروبية(١).

(١) نفس المرجع، ص ٥٩١ وانظر كذلك سعيد عاشور، المرجع السابق ص ١٧٠-١٧٣.

١١ ـ علماء المسلمين والأخلاق

لم تقتصر أثار الحضارة الإسلامية على ميادين الأداب والعلوم والفنون التي تناولناها ي إيجاز، بل أيضا في مختلف ميادين الحضارة في مظاهرها وجوانبها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية.

ولم يكن تأثير المسلمين على أوروبا في المعنويات والأخلاق أقل وضوحاً والمعروف أن المثل العليا للتربية الأخلاقية عند العرب هي الشجاعة والصبر ومراعاة الجوار والمروءة والكرم وحسن الضيافة ومساعدة النساء والأرامل والوفاء بالعهود.(١)

ومهما يكن من أمر فإن علموا الأوروبيون أجل الصفات الإنسانية التي جب كأن يتحلى بها البشر، وهي ضفة التسامح الديني. وقد أجمعت المراجع والوثائق الأوروبية على أن المسيحيين واليهود والزداشتيه والصائبة تمتعوا في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح ليس لها نظير في البلاد المسيحية المعاصرة. ذلك أنهم تركوا أصراراً في ممارسة شعائر أديانهم وحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ،ولم تفرض عليهم سوى جزية ضئيلة تراوحت قيمتها بين دينار وأربعة دنانير. ولم تفرض هذه الجزية إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح ويعفي منها الرهبان والنساء والذكور الذين هم دون البلوغ، والأرقاء والشيوخ والعجزة

(١) فيليب حتى، تاريخ العرب، جـ٣ ، ص ٣٢٢ .

والمعدمين. ومن الواضع أن أهل الذمة أعفوا من الخدمة العسكرية مقابل دفع هذه الضريبة، كذلك أعفوا من ضريبة الزكاة التي فرضت على المسلمين وحدهم. وهكذا أخذ المسيحيون في جميع البلدان الإسلامية يمارسون شعائر دنيهم في حرية تامة. وقد بلغت المودة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية درجة سمحت للدولة الإسلامية استخدام المسيحيين في أرقى مناصب الدولة. كما سمح المسلمون لعقد مؤتمرات المسيحيين ومجامعهم الدينية في العالم الإسلامي بكل حرية(١).

وكان للمرأة في ظل الأمويين بالأندلس نصيب من الحرية وخط من الاعتبار لم يعرفه العالم عندئذ، لافي الشرق ولا في الغرب. هذا عدا ما امتاز به العرب من صفات الفروسية العربية شروطها، فلا يكون المرء فارساً إلا إذا تحلى بخصال عشر هي : التقوى، والشجاعة، ورقة الشمائل، والقريحة الشعرية، والفصاحة، والقوة، والمهارة في ركوب الخيل، والقدرة على استعمال السيف، والرمح ، والنشاب »(٢).

والواقع أن هذه الأخلاق الكريمة التي عرف بها لعرب من أمانة وكرم وإخلاص ووفاء ورحمة هي التي شجعت ملوك قشتالة وأرغون وغيرهم من الحكام المسيحيين على الذهاب آمنين إلى قرطبة العربية ليعالجهم أطباؤها المشهورون. وقد اعترف جوستاف لوبون بفضل العرب وتأثيرهم

(١) د/ سعيد عاشور، المرجع السابق، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

(٢) جوستاف لوبون، حضارة ا لعرب، ص ٢٩٦ ـ ٣٠٠ .

في أخلاق وطبائع الأوروبيين عندما قال: «تخلص النصارى من همجيتهم بفضل اتصالهم بالعرب واقتباسهم منهم الطبائع النبيلة ومبادئ فروسيتهم التي منها مراعاة النساء والشيوخ والأولاد واحترام العهود والوفاء بالوعود»(١).

(١) نفس المرجع، ص ٥٩٧.

قائمة المصادر العربية

١ ـ د/ أحمد إبراهيم الشريف، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي.

٢ ـ أحمد أمين، ظهر الإسلام، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٥٣ .

٣ ـ آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، (جزءان) القاهرة ١٩٤٥ .

٤ ـ برناردو لويس، العرب في التاريخ، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف ز ايد بيروت.

٥ ـ توماس أرنولد الفرد جيوم ، تراث الإسلام، جزءان، القاهرة ١٩٣٦م.

٦ ـ جورج يعقوب، أثر الشرق في الغرب، ترجمة فؤاد حسنين علي، القاهرة ١٩٤٦ .

٧ ـ جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز حاويد، القاهرة ١٩٥٦ .

٨ ـ جوستاف لولون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٥م.

٩ ـ د. جميل عبد اله المصري، حاضر العالم الإسلامي، الرياض ١٩٩٦م.

١٠ ـ د/ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي ٤ أجزاء، القاهرة ١٩٦٠م.

١١ ـ د/ حسن الباشا، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٩٢م.

١٢ ـ د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا في العصور الوسطى (جزءان) القاهرة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣م.

١٣ ـ د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، النهضات الأوروبية في العصور الوسطى القاهرة ١٩٦٠م.

١٤ ـ د/ سعيد عبد الفتاح عاشور المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوربية القاهرة ١٩٦٣ .

١٥ ـ عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، القاهرة ١٩٦٢م.

١٦ ـ د/ عز الدين فراج ، فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، القاهرة ١٩٨٨م.

١٧ ـ د/ عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه، القاهرة ١٩٩٥م.

١٨ ـ د/ عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية معتدى عليها ط١ ، القاهرة ١٩٨٠م.

١٩ ـ فيليب متى ، تاريخ العرب ١٣ جزءان، بيروت ١٩٥٣ .

٢٠ ـ قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب، القاهرة ١٩٦٠ م.

٢١ ـ محمد جميل بينهم، فلسفة التاريخ العثماني، بيروت ١٩٥٤م.

قائمة المصادر الأجنبية

1 - Browne , E.G., Arabian Medicine, London 1921.

2 - Dampier, W.C., AShort History of science London 1949

3 - Eyre, Edward, Eurpopean Civilisation, 3 vols.

4 - Singer, C. From Magie to science, London 1928.

5 - Taylor, G. Geography in the Twentieth Centwry , London 1951.

6 - Taylour, w. Arabic words in English London 1933.

الفهرس

الموضـــــــــــوع	الصفحـــة